حسن بلاسم

قصص

مجنون ساحة الحرية





إصدارات "أدب فن" 2015

مجنون ساحة الحرية

قصص قصيرة

حسن بلاسم

أدب فن 2015

قصص

عن حسن بلاسم وقصصه

يمثل حسن بلاسم- قاصاً وشاعراً، وكاتب سيناريو- تياراً متميزاً في الأدب العربي. ذلك أن (واقعية) بلاسم مغايرة للسائد تماماً. قد تكون شبيهة بمشرط جرّاح يقوم بحزّ الجلد، والأنسجة الحيّة، وقطع أوعية الدم. إنها واقعية الاجتياز الفظ للحياة، وحجب كل الأضواء الزائفة المسلطة على الإنسان ودراماه الرئيسية: الوجود في الزمكان.

منجزه (بلاسم) صار معروفاً ومقدَّراً بفضل قدراته السردية وخصوبة مخيلته الفنية. ولا يصعب إدراك مكانة قصصه كنتاج تعامل خاص يمارسه الاثنان- القاص والسينمائي رغم أن الأول تكون أداته اللغة، والثاني الكاميرا.

أخذ بلاسم بأكثر من صيغة جاءت بها فتوحات الأدب الحديث من قبل جيمس جويس وبعده، مما أثرى موقعه كقاص عربي، يملك مساره المتميز الذي يتعامل مع فن السرد كنسيج مدمّى، بل جسد لا ينقطع عن الإعلان التراجيدي بأنه الضحية الدائمة لعبثيات الزمكان البشري.

وفي خلقه الكتاب ذي البيولوجية المتفجرة لا يتجنب بلاسم صدم القارئ بالحقائق العارية. واضح أن سكينه التي يشق بها دمامل الواقع العراقي وغيره تبدو ذات جمال آخر غير الذي اعتادت أجيال عربية على التعايش معه. وتذكّر قصصه بأن للجمال أكثر من تعريف واحد، وقد يأتي من أكثر من (قعر) بشري ووجودي. إنه جمال مستل من قبح وشراسة الحياة وسفالات التأريخ. وهاجس هذا الكاتب هو تجنب كل خداع للنفس والآخر. فمحن وإشكاليات الوجود، وكل هذا الظلام الذي يلف العقل حين يواجه ألغاز العالم لا يريد بلاسم تهميشها من أجل التمركز التقليدي في ممارسات الواقع المألوف. من ناحية أخرى يكون بلاسم ممثلاً نموذجياً لجيله الذي ألقوه في جبّ أشرس واقع عرفه العراق المعاصر - عراق تلك الدكتاتورية الدموية. وحين يلتصق هذا الكاتب، حسّياً، بالواقع (المباشر) لا يعني هذا إلا إعادة اكتشاف مثل هذا الواقع، لكن من خلال المسك بواقع آخر – واقع الأنا التي دخلت تلك التجارب.

لحسن بلاسم أكثر من رباط وثيق بالجيل الحاضر، جيل فتوحات الألكترونكا الانقلابية والعنيفة. ومن هنا وعيه بأن الأدب القديم فقد زخمه، ولا تصلح هويته لواقع اليوم.

وتبقى الكتابة عند بلاسم عملاً انفجارياً بسبب الحمى والرغبة العارمة في (تسوية الحساب) مع كل ما يشوّه الإنسان والحياة. ويستعين، هنا، بكل حوّاسه الخمس التي تمهد الطريق لمخيلة توقظها الدهشة

والصدمة، عند التعامل مع واقع ملموس ضاغط بل ساحق. وتكشف قصص بلاسم عن أن (كاميراه) القصصية لا تفعل شيئاً سوى انتقاء صور وتداعيات وتيارات وعي تحدث (هنا والآن). أكيد أن هناك عراكاً آخر يخوضه هذا الكاتب: إذا كان سارتر قد وقف طويلاً عند الشرخ القائم بين الوجود والعدم، فهناك من اكتشف شرخاً آخر– القائم بين اللغة والواقع. وبلاسم يصارع الأولى والثاني إلا أنه يدير ظهره لشتى صنوف الرومانسية والغنائية وتلك العاطفية التي صارت لغة راسخة في أكثر من قطاع من قطاعات الأدب العربي. أما لغة بلاسم فهي تناطح الأخرى المعجمية التي يخشى دائماً من أن تقوم بلجم ما يريد التعبير عنه في قصصه.

ولا يرى حسن بلاسم في مآسي بلاده فصلاً مستقلاً عن مآسي الوجود الأخرى. فالتأريخ الأحدث للعراق بأنظمته وحروبه العبثية، يمضي مع المآسي الأخرى في المجرى ذاته لأحد أنهار هاديس الميثولوجية ...

عدنان المبارك

الأرشيف والواقع

لكل نزيل في محطة استقبال اللاجئين حكايتان: واحدة واقعية وأخرى أرشيفية. الحكايات الأرشيفية هي الحكايات التي يرويها اللاجئون الجدد من أجل الحصول على حق اللجوء الإنساني. وتُدوّن هذه الحكايات في دائرة الهجرة وتحفظ في ملفات خاصة. أما الحكايات الواقعية فتبقى حبيسة في صدور اللاجئين ليعتاشوا على ذكراها بسرية تامة. لكن هذا لا يعني أنه يمكن التمييز بسهولة بين حدود الحكايتين، فقد تختلطان ويصبح التمييز بينهما مجرد محاولة عبثية. قبل يومين وصل لاجئ عراقي جديد إلى مدينة مالمو جنوب السويد. رجل نحيل في نهاية الثلاثين من العمر. أُدخل إلى محطة الاستقبال وأُجريت له بعض الفحوصات الطبية. ثم أعطوه غرفة وسريراً ومنشفةً وشرشفاً وصابونةً وملعقةً وشوكةً وسكيناً وقدراً لطبخ الطعام. يجلس الرجل اليوم أمام موظف دائرة الهجرة يروي حكايته بسرعة غريبة ، بينما موظف الهجرة يطلب منه أن يبطئ السرد قدر المستطاع:

أخبروني أنهم باعوني إلى جماعة أخرى. كانوا فرحين جداً. ظلوا طوال الليل يشربون الويسكي ويضحكون. حتى أنهم دعوني لمشاركتهم الشرب. اعتذرت أنا وأخبرتهم بأنني رجل ملتزم بدينه. اشتروا لي ملابس جديدة وطبخوا لي في تلك الليلة دجاجة، وقدموا لي الفواكه والحلويات. يبدو أن ثمني كان جيداً. حتى أن قائد المجموعة سكب دموعاً حقيقية عند توديعي. عانقني مثل أخ: أنت رجل طيب للغاية... أتمنى لك كل الخير والموفقية في حياتك، قال الرجل الأعور.

أظنني بقيت مع الجماعة الأولى ثلاثة أشهر فقط. وكانوا قد اختطفوني في تلك الليلة الباردة والمشئومة. حدث ذلك في بداية شتاء 2006. تلقينا التعليمات بالتوجه إلى نهر دجلة. كانت هي المرة الأولى التي نتلقى فيها الأوامر مباشرة من مدير قسم الطوارئ في المستشفى. عند ضفة النهر كان رجال الشرطة يحيطون بست جثث من دون رؤوس، وكانت الرؤوس قد وضعت في شوال طحين فارغ أمام الجثث. خمن رجال الشرطة بأنها جثث رجال دين. كنا قد تأخرنا في الوصول بسبب

الأمطار الشديدة . كدس رجال الشرطة الجثث في سيارة الإسعاف التي يقودها زميلي أبو سالم وحملت أنا إلى سيارتي شوال الرؤوس. كانت الشوارع خالية ولم يكن يخرق سكون ليل بغداد الموحش سوى أصوات رصاص في البعيد، وصوت طائرة مروحية أمريكية تدور فوق المنطقة الخضراء. انطلقنا عبر شارع أبي نؤاس باتجاه شارع الرشيد، سرنا بسرعة متوسطة بسبب الأمطار، فـ(عند حمل جريح أو مريض يحتضر، تصبح سرعة سيارة الإسعاف الدليل على المسؤولية الإنسانية. أما حمل الرؤوس المقطوعة في سيارة إسعاف فلا يحتاج إلا إلى سرعة عربة موتى تجرها البغال في غابة مظلمة من القرون الوسطى) هذا ما كان يردده علينا مدير شعبة الطوارئ في المستشفى. وهو رجل كان يعتبر نفسه فيلسوفاً وفناناً، لكنه (ولد في البلد الخطأ) على حد قوله. مع ذلك كان يحترم عمله ويعتبره من الواجبات المقدسة. فإدارة قسم سيارات الإسعاف في شعبة الطوارئ تعني إدارة الخط الفاصل بين الحياة والموت نسبة له. ومن جانبنا كنا نطلق عليه ــ الأستاذ ــ أما الآخرون فكانوا يمقتونه وينعتونه بالمجنون. وأنا عرفت سبب المقت. فكلامه الغامض والعدائي جعله رجلاً معقداً في نظر الآخرين. غير أني كنت أكنّ له الكثير من الاحترام والمحبة بسبب حديثه الجميل والشيق. قال لي مرة:

إن الدم المسفوك والخرافة هما أصل العالم. أما الإنسان فهو ليس الكائن الوحيد الذي يقتل من أجل الخبز أو الحب أو السلطة ، فالحيوانات في الغابة تفعل ذلك بشتى السبل ، لكنه الوحيد الذي يقتل بسبب الإيمان. وغالباً ما كان يختم حديثه بجملة مسرحية وهو يشير بيده إلى السماء: لا يمكن حل قضية الإنسان إلا بالرعب المتواصل. كان زميلي أبو سالم يأخذه الظن بأن الأستاذ على علاقة بالجماعات الإرهابية بسبب عنف كلامه. لكني كنت أدافع بإخلاص عن الرجل الذي يجهلون أنه فيلسوف يأبى أن يطلق المزح السخيفة كما يفعل طوال النهار سائقو سيارات الإسعاف الحمقى. كنت أحفظ كل جملة وكلمة يقولها. فأنا كنت أسير محبته والإعجاب به.

أعود إلى تلك الليلة الملعونة عندما انعطفنا باتجاه جسر الشهداء. انتبهت إلى اختفاء سيارة الإسعاف التي يقودها أبو سالم ، ثم لمحت في المرآة الجانبية سيارة شرطة مسرعة تلحق بي. ركنت السيارة بدوري على جانب الطريق وسط الجسر. ترجل من سيارة الشرطة أربعة شبان ملثمين يرتدون زي قوات الشرطة الخاصة. أمرني قائد المجموعة بالترجل من السيارة وهو يوجه مسدسه في وجهي. بينما اخذ رفاقه الآخرون بإنزال شوال الرؤوس من سيارة الإسعاف.

(لقد اختطفتُ وهم سيقطعون رأسي ...) . كان هذا أول ما فكرت به حين كبلوني وحشروني في صندوق سيارة الشرطة. احتجت إلى عشر دقائق فقط لأدراك حقيقة ما ينتظرني... قرأت آية الكرسي ثلاث مرات في ظلام الصندوق. شعرت بأن جلدي أخذ يتشقق. لا أدري لم فكرت في تلك اللحظات المظلمة في وزن جسمي. ربما 70 كيلو. كان رعبي يزداد كلما أبطأت سيارتهم أو عطفت. وحين

تعاود الانطلاق بسرعة ، كان ينبض فيّ إحساس غامض هو مزيج من الطمأنينة والقلق. ربما فكرت حينها بحديث الأستاذ عن علاقة السرعة بالاحتضار. لم أفهم ما الذي كان يعنيه بالتحديد. كان يقول إن من يحتضر في غابة يشعر برعب أشد من الذي يحتضر داخل سيارة إسعاف مسرعة. لأن الأول يشعر بأن الزمن قد انفرد به ، بينما يخيل للثاني بأن هناك من يتضامن معه. أكيد أنه وهم الهروب بعكس الاتجاه. اذكر أيضاً أنه أعلن مبتسماً: أتمنى احتضاراً داخل مركبة فضائية تسير بسرعة الضوء.

خيل إلي أن جميع الجثث المجهولة والمشوهة التي حملتها في سيارة الإسعاف منذ سقوط بغداد، كانت أمامي. ثم شاهدت الأستاذ في الظلام الذي يلفني حاملاً رأسي المقطوع من كومة نفايات، بينما يطلق زملائي مزحة داعرة عن حبي للأستاذ . أظن إن سيارة الشرطة لم تقطع مسافة طويلة قبل أن تتوقف عن السير. في كل الأحوال هم لم يخرجوا من المدينة. حاولت أن أتذكر سورة الرحمن، لكنهم أنزلوني وقادوني داخل بيت كانت تفوح منه رائحة السمك المشوي، ووصلني بكاء طفل. فكوا الرباط عن عينيّ ووجدت نفسي في غرفة باردة وخالية من الأثاث. ثم انهال عليّ بالضرب المبرح ثلاثة أشخاص مجانين . وبعدها ساد الظلام من جديد.

خيل لي أنني سمعت صياح ديك أول الأمر. أغمضت عيني لكنني لم أتمكن من النوم. كنت اشعر بألم حاد في أذني اليسرى. انقلبت بصعوبة على ظهري وزحفت باتجاه الشباك الذي كان قد سد بالطابوق حديثاً. كنت أشعر بعطش شديد. كان من السهل التكهن من أنني داخل أحد بيوت الأحياء البغدادية القديمة. كان الأمر واضحاً من طراز بناء الغرفة، خاصة من باب الخشب القديم. في الحقيقة لا أعرف ما الذي يهمكم بالتحديد من تفاصيل قصتي كي أحصل على حق اللجوء في بلدكم. أنا أشعر بصعوبة بالغة في وصف أيام الرعب تلك. لكنني أريد أن أذكر بعض الأمور التي تهمني أيضاً. كنت أتصور أن الله ومن بعده الأستاذ لم يتخليا أبداً عني طوال محنتي. كان الله حاضراً بقوة في قلبي، يروي طمأنينتي ويدعوني إلى الصبر. وكان الأستاذ يشغل ذهني ويخفف عني وحشة الأسر. كان عزائي وسلوتي. كنت أفكر طوال تلك الأشهر العصيبة بما قاله الأستاذ عن صديقه المهندس داود. ما الذي كان يعنيه بأن العالم موصول بعضه ببعض. وأين قدرة الله ومشيئته في مثل هذه الأمور ؟ شربنا الشاي في باب المستشفى عندما قال الأستاذ: حين كان صديقي داود يقود سيارة العائلة في شوارع بغداد، كان هنالك شاعر عراقي يكتب في لندن مقالاً نارياً في مديح المقاومة وعلى طاولته، زجاجة ويسكي تعينه على قسوة القلب. ولأن العالم موصول بعضه ببعض: بالأحاسيس، والكلمات، والكوابيس، وبواسطة شرايين سرية أخرى، فقد خرج من مقال الشاعر ثلاثة رجال ملثمين، وأوقفوا

سيارة العائلة. قتلوا داود وزوجته وطفله وأباه. أما الأم فكانت بانتظارهم في البيت. أم داود لا تعرف الشاعر العراقي ولا الرجال الملثمين. أم داود تعرف طبخ السمك الذي كان ينتظرهم. نام الشاعر من شدة السكر فوق الكنبة في لندن. بينما برد سمك أم داود، وغابت الشمس في بغداد.

فتح باب الغرفة الخشبي، ودخل شاب طويل شاحب الوجه ، يحمل وجبة الفطور. ابتسم لي وهو يضع الطعام أمامي. ترددت أول الأمر بما يمكنني قوله أو فعله. ارتميت عند قدميه وتوسلت باكياً (أنا أب لثلاثة أطفال... أنا رجل متدين، وأخشى الله ...لا علاقة لي بالسياسة ولا بالمذاهب... الله يستر عليكم ... أنا مجرد سائق سيارة إسعاف ... قبل السقوط ... وبعد السقوط ... أقسم بالله ونبيه الكريم) وضع الشاب أصبعه على شفتيه، وخرج منصرفاً. لقد شعرت أن نهايتي قد حلت. شربت قدح الشاي وقمت للصلاة عسى أن يغفر الله لي ذنوبي. في السجدة الثانية شعرت بطبقة من الجليد تكتسح جسدي، وكدت أطلق صرخة جزع، غير أن الشاب فتح الباب. كان يحمل جهاز إضاءة صغير محمول على مسند، وبرفقته صبي يحمل الكلاشنكوف. وقف المراهق إلى جانبي، وهو يصوب السلاح إلى رأسي، ولم يتحرك بعد ذلك من مكانه. دخل رجل بدين في الأربعين من العمر. لم يلتفت لي. علق على الحائط لافتة قماش سوداء كتبت فيها آية قرآنية تحث المسلمين على الجهاد. ثم دخل شخص آخر ملثم يحمل كاميرا فيديو وجهاز كمبيوتر صغير. دخل بعد ذلك صبي وهو يحمل طاولة خشبية صغيرة. داعبه الرجل الملثم عاركاً أنفه وشكره، ثم وضع جهاز الكمبيوتر على الطاولة، وانشغل بتثبيت كاميراته بمواجهة اللافتة السوداء. جرب الشاب النحيل تشغيل جهاز الإضاءة ثلاث مرات ثم انصرف.

صاح الرجل البدين: أبو جهاد...أبو جهاد.

أتى صوت الشاب من خارج الغرفة: فد دقيقة .. عيني أبو أركان...

عاد الشاب هذه المرة وهو يحمل شوال الرؤوس الذي أخذوه من سيارة الإسعاف. سد الجميع أنوفهم بسبب عفونة الكيس. طلب الرجل البدين مني أن اجلس أمام اللافتة السوداء، أحسست أن ساقيّ قد شلتا. لكن الرجل البدين سحبني من ياقة قميصي بعنف. عندها دخل رجل أعور آخر، ضخم الجثة، وأمر البدين بأن يتركني لحالي، وكان هذا يحمل في يده بذلة عسكرية. جلس الأعور قربي وهو يضع ذراعه حول كتفي مثل صديق، وطلب مني أن أهدأ. أخبرني بأنهم لن يذبحوني إذا تعاونت معهم، وصرت طيب القلب. لم أفهم جيداً معنى (طيب القلب) هذه. أكد لي بأن الأمر لن يستغرق سوى بضع دقائق. أخرج الأعور من جيبه ورقة صغيرة وطلب مني أن أقرأها. بينما قام الرجل البدين بإخراج الرؤوس المتعفنة وقام بصفها أمامي. كان مكتوباً في الورقة بأنني ضابط في الجيش العراقي وأن هذه الرؤوس هي لضباط آخرين، وكنت قد قمت برفقة زملائي الضباط بمداهمة البيوت واغتصاب النساء وتعذيب المواطنين الأبرياء، وكنا نتلقى الأوامر بالقتل من ضابط كبير في الجيش

الأمريكي، مقابل مكافآت مالية كبيرة. طلب مني الأعور أن أرتدي البذلة العسكرية. أمر المصور الجميع أن ينسحبوا إلى خلف الكاميرا. ثم تقدم مني وأخذ يعدل رأسي مثلما يفعل الحلاق. بعدها عدّل صف الرؤوس. ثم عاد خلف كاميراته وصاح:

تفضل!!

كان صوت المصور من أكثر الأصوات ألفة على أذني. ربما كان يشبه صوت ممثل شهير. أو كأنه صوت الأستاذ حين يجهد نفسه في التحدث بهدوء مصطنع. بعد تصوير شريط الفيديو، لم ألتق بأفراد الجماعة أبداً، عدا الشاب الذي كان يجلب لي الطعام. وكان هذا يمنعني من طرح أي سؤال. وفي كل مرة يأتي لي بالطعام يلقي علي مزحة جديدة عن الساسة ورجال الدين. كانت أمنيتي الوحيدة أن يسمحوا لي بالاتصال بزوجتي. كنت اخبأ بعض النقود لليوم الأسود في مكان لا يخطر على بال الجن نفسه. لكنهم رفضوا ذلك بشدة. أخبرني قائد المجموعة الأعور أن كل شيء يتوقف على نجاح شريط الفيديو. وقد تحقق ذلك فعلاً بسرعة كبيرة أدهشت الجميع. لقد عرضت قناة الجزيرة شريط الفيديو. سمحوا لي بمشاهدة التلفزيون، وكانوا ينطون يومها من الفرح. حتى أن الرجل البدين قبلني من رأسي، وقال إنني ممثل عظيم. وقد أثار غضبي مقدم الأخبار في قناة الجزيرة الذي أكد للمشاهدين بان القناة تأكدت عبر مصادرها الموثوقة من صحة الشريط، وبأن وزارة الدفاع اعترفت باختفاء الضباط. بعد نجاح عرض الشريط، أخذوا يعاملونني بطريقة كانت أكثر من جيدة. اعتنوا بطعامي وفراش نومي، وسمحوا لي بالاستحمام، حتى توج تكريمي في الليلة التي باعوني فيها للجماعة الثانية. دخل الغرفة ثلاثة رجال ملثمين من تلك الجماعة، وبعد أن ودعني الأعور بحرارة، انهال علي الرجال الجدد بالضرب ثم كبلوني وكمموا فمي، وحشروني داخل صندوق سيارة، انطلقت بسرعة مرعبة.

قطعت سيارة الجماعة الثانية مسافة طويلة هذه المرة. ربما وصلنا أطراف بغداد. فقد أنزلوني في قرية موحشة تسرح فيها الكلاب وتعوي في كل مكان. حبسوني في زريبة أبقار. وكان هناك رجلان يتبادلان حراسة الزريبة ليل نهار. لا اعرف لم عمدوا إلى تجويعي وإذلالي. كانوا يختلفون تماماً عن الجماعة الأولى. وكانوا ملثمين طوال الوقت، ولم يتكلموا معي البتة. وكانوا يتفاهمون فيما بينهم بالإشارات. بل لم يكن هناك أي صوت بشري يسمع من القرية سوى نباح الكلاب طوال الشهر الذي قضيته في الزريبة. كانت الساعات تمر ثقيلة ومضجرة. كنت أتمنى أن يحدث أي شيء، بدل هذا السجن المؤبد مع ثلاث بقرات. توقفت عن التفكير بهؤلاء الناس، وإلى أي طائفة أو حزب ينتمون، ولم أعد أندب حظي. كنت أشعر بأنني قد عشت ما يحدث لي في زمن ما، وإن هذا الزمن مجرد برهة لن تدوم طويلاً. لكن الإحساس بهذا الزمن هو الذي يصطنع البطء والدوار. لم يعد يخطر ببالي محاولة

الهرب، أو سؤالهم عما يريدون مني. لقد شعرت أنني أقوم بمهمة ما. واجب قسري علي أن أؤديه حتى النفس الأخير. ربما هناك قوة خفية تكاتفت مع قوة بشرية للقيام بلعبة سرية أهدافها أكبر من أن يتخيلها رجل بسيط مثلي(لكل إنسان واجب شعري وآخر إنساني) كان الأستاذ يقول. لكن إن كان ذلك صحيحاً كيف لي أن أميز، وهكذا بسهولة، بين حدود الواجب الإنساني والآخر الشعري؟ فأنا أفهم مثلاً إن العناية بزوجتي وأطفالي هي من الواجبات الإنسانية. وإن رفض الكراهية هي من الواجبات الشعرية. لكن لم كان الأستاذ يقول إننا نخلط بين الواجبين ولا نعترف بالشق الشيطاني الذي يوجه كلا الواجبين. فالواجبات الشيطانية هي القدرة على الوقوف في وجه الإنسان حين يوّجه إنسانيته، أو حتى الشعر المتطرف، صوب الهاوية. وكان هذا كثيراً جداً على عقل رجل بسيط مثلي، أكمل دراسته المتوسطة بمشقة كبيرة. على كل حال ، أظن إن ما أقوله لا علاقة له بطلب اللجوء. فما يهمكم هو الفزع. ولو كان الأستاذ حاضراً، لقال بأن الفزع يكمن في ابسط الألغاز التي تلمع في نجمة باردة من سماء هذه المدينة. أخيراً دخلوا الزريبة بعد منتصف الليل. قام أحد الملثمين بفرش زاوية من الزريبة بالسجاد الفاخر. ثم قام زميله بتعليق لافتة سوداء مكتوب عليها: جماعة الجهاد الإسلامي فرع العراق. بعد ذلك دخل المصور مع كاميرته، وقد بدا لي انه مصور الجماعة الأولى نفسه. كانت حركات يديه شبيهة بحركات المصور الأول. الفارق الوحيد إنه يتفاهم الآن مثل الآخرين بالإشارات. طلبوا مني أن أرتدي دشداشة بيضاء، وأجلس أمام اللافتة السوداء. قدموا لي ورقة، وأمروني أن أقرأ ما فيها، أي أنني انتمي إلى جيش المهدي، وأنني ذباح شهير، وقمت بفصل مئات الرؤوس من رجال السنة، وبأننا نتلقى المساعدات من إيران. وقبل أن أنهي القراءة، صدر عن إحدى البقرات خوار عال، طلب المصور إثره أن أعيد القراءة. أخرج أحد الرجال، البقرات الثلاثة، كي نكمل تصوير مشهد الزريبة.

أدركت فيما بعد أن جميع الذين اشتروني، كانوا ينقلونني عبر الجسر نفسه. ولا أعرف السبب. جماعة تعبر بي من جسر الشهداء صوب الكرخ، ثم الجماعة التالية تعود بي عبر الجسر نفسه إلى الرصافة. أظن أن قصتي لن تنتهي بهذه الطريقة. وأخشى أن تقولوا كما قال الآخرون عن حكايتي. يبدو لي من الأفضل أن اختزل لكم الحكاية بدلاً من أن تتهموني باختلاقها: باعوني إلى جماعة ثالثة. عبرت السيارة بسرعة جسر الشهداء مرة أخرى. نقلت إلى بيت فاحش الثراء. فقد كان سجني هذه المرة في غرفة نوم مزودة بسرير مريح، وجميل، من تلك التي نشاهد أبطال الأفلام يمارسون الجنس فيها... وتبخر الخوف من نفسي، وصرت أفقه فكرة الواجب الخفي الذي اختاروني له، و أنا قمت به لئلا اخسر رأسي. لكني فكرت أيضاً بأن اختبر رد فعلهم في بعض الأمور. فبعد تصوير فيديو جديد أتحدث فيه عن انتمائي إلى الجماعات الإسلامية السنية، وعن عملي في تفجير مساجد الشيعة وأسواقهم الشعبية، طالبتهم ببعض النقود لقاء تصوير الشريط هذا. كان جوابهم الحاسم، ضرباً لن أنساه. طوال

عام ونصف من رحلة اختطافي، تنقلت من وكر إلى آخر. صوروا لي أشرطة فيديو أتحدث فيها عن انتمائي إلى الأكراد الخونة، والمسيحيين الكفار، و إرهابي السعودية، والمخابرات السورية البعثية، وإلى حرس ثورة إيران المجوسية. في هذه الأشرطة قتلت، واغتصبت، وأحرقت، وفجرت، وقمت بجرائم لا يتصورها عاقل. جميع أشرطة الفيديو هذه عرضتها فضائيات العالم، وجلس خبراء وصحفيون وساسة ينقاشون ما قلته وفعلته. أما الحظ السيئ الوحيد الذي صادفنا، كان عند تصوير الفيديو الذي اظهر فيه كجندي أسباني يسلط أحد رجال المقاومة سكيناً على رأسه، ويطلب من القوات الاسبانية الانسحاب من العراق. لقد رفضت جميع المحطات الفضائية بث الشريط. فالقوات الاسبانية كانت قد غادرت البلاد قبلها بعام. وكدت أدفع ثمناً باهظاً على هذه الغلطة، فتلك الجماعة أرادت ذبحي انتقاماً لما حدث. لكن من أنقذني كان المصور الذي اقترح عليهم فكرة رائعة أخرى، كانت النهاية لأدواري الفيديوية:

ألبسوني زياً للمقاتلين الأفغان، وشذبوا لحيتي، ثم وضعوا على رأسي عمامة سوداء. وقف خلفي خمسة. وجاءوا بستة رجال يصرخون ويستغيثون بالله، ونبيه، وآل بيته، ذبحوهم أمامي مثل الخراف، وأنا أعلن بأني الزعيم الجديد لتنظيم القاعدة في بلاد الرافدين، كما هددت الجميع من دون استثناء.

في ساعة متأخرة من الليل. جلب لي المصور ثيابي القديمة ثم قادني إلى سيارة الإسعاف الواقفة أمام الباب. وضعوا تلك الرؤوس الستة في شوال ألقوه في السيارة. في تلك اللحظات راقبت حركات مصور الفيديو، وأيقنت من أنه مصور الجماعات كلها، وقد يكون الرأس المدبر لهذه اللعبة الرهيبة. جلست خلف مقود سيارة الإسعاف بيدين مرتجفتين. ثم أصدر المصور الأمر من خلف لثامه:

أنت تعرف الطريق ... عبر جسر الشهداء ... إلى المستشفى...

أنا أطلب اللجوء في بلدكم بسبب الجميع. كلهم قتلة ومتآمرون: زوجتي، وأولادي، وجيراني، وزملائي، والله، ونبيه، والحكومة، والصحف، وحتى الأستاذ الذي كنت اعتبره ملاكاً، وعندي شكوك بأن مصور الجماعات الإرهابية كان الأستاذ بعينه. لم يكن كلامه الغامض سوى دليل على تواطئه وقذارته. لقد قالوا جميعاً إن غيابي عن العمل لم يستغرق عاماً ونصف، فقد عدت في الصباح من عملي في تلك الليلة الماطرة. والأستاذ الشرير قال في ذاك الصباح: العالم مجرد حكاية دموية افتراضية، ونحن كلنا قتلة وأبطال. وهذه الرؤوس الستة لا يمكنها أن تكون الدليل على ما تقول، كما ليست بالدليل على أن الليل لن يخيم في المساء.

بعد ثلاثة أيام من تدوين هذه الحكاية في أرشيف دائرة الهجرة، أدخلوا صاحبها إلى مستشفى الأمراض النفسية. وقبل أن يهم الطبيب بسؤاله عن بعض ذكريات طفولته، لخص سائق سيارة الإسعاف حكايته الواقعية هذه المرة بكلمتين:

– أريد النوم .

قالها بتوسل ومذلة...

شاحنة برلين

هذه القصة حدثت في الظلام. ولو قدر لي أن أكتبها مرة أخرى، لكتبت ما أطلقت حينها من صيحات فزع فقط، وما أطلقته من تلك الأصوات الأخرى الغامضة التي رافقت المجزرة. يصلح قسم مهم من هذه القصة لعمل إذاعي تجريبي. ومن المؤكد أن غالبية القراء ترى القصة مجرد تلفيق قام به كاتب قصصي، أو قد تكون مجازاً متواضعاً عن الرعب. لكنني لا أجد نفسي بحاجة إلى أن أقسم لكم كي تصدقوا غرابة هذا العالم. إن حاجتي هي كتابة هذه القصة، كلطخة خراء في قمصان النوم، وربما لطخة على شكل زهرة برية.

في صيف العام 2000، كنت أعمل في بار وسط اسطنبول. أعانتني هناك لغتي الانكليزية الركيكة، فزبائن البار كانوا من السياح، وأغلبهم من الألمان الذين كانوا يتحدثون إنكليزية مضحكة أيضاً. كنت هارباً حينها من جحيم سنوات الحصار الاقتصادي. لا خوفا من الجوع، ولا من الديكتاتور، بل كنت هارباً من نفسي. ومن وحوش أخرى. كان الخوف من المجهول في تلك السنوات القاسية يضاعف من طمس هوية الانتماء إلى الواقع المألوف، ويدفع إلى السطح بوحشية كانت مطمورة تحت حاجات الإنسان اليومية البسيطة. في تلك السنوات شاعت قسوة حيوانية دنيئة، سببها الخوف من الموت جوعاً. كنت أشعر بأنني مهدد بالتحول إلى فأر.

جمعت نقوداً من ذلك العمل، ودفعتها لمهربي مواشي الشرق البشرية، إلى مزارع الغرب . كانت هناك طرق للتهريب تختلف أسعارها: سفر جوي بجواز مزور، إلا أنها تكلف كثيراً. هناك المشي مع المهرب عبر غابات وأنهار الحدود، وهذه أرخصها. هناك طريق البحر، وطريق الشاحنات الذي كنت قد فكرت فيه. رغم إنني كنت قلقاً بسبب حكاية الجهاز الذي تستخدمه الشرطة في قياس ثاني أوكسيد الكربون في الشاحنات، لكشف أنفاس من يختبئون فيها. لكن ليس هذا الجهاز قد دفعني إلى التخلي عن فكرة العبور بالشاحنة، بل حكاية علي الأفغاني، ومجزرة شاحنة برلين. كان الأفغاني كنزاً من كنوز حكايات التهريب. سكن عشر سنوات في اسطنبول بصورة غير قانونية. عمل في التزوير، وبيع

المخدرات، لينفق ما يجمعه على العاهرات الروسيات، ورشوة الشرطة. بعضهم سخر مني لتصديقي حكاية شاحنة برلين. في الحقيقة لدي أكثر من دافع إلى تصديق مثل هذه الحكايات. فالعالم بالنسبة لي هش جداً، ومخيف ولا إنساني، وهو لا يحتاج إلا إلى رجة صغيرة ليخرج فضاعاته، وأنيابه البدائية. بالطبع، أنتم تعرفون قصصاً تراجيدية كثيرة، عن مثل هذه الهجرة، ورعبها من وسائل الإعلام التي تركز قبل كل شيء على غرق المهاجرين. وأنا أجد أن مثل هذا الغرق الجماعي هو مشهد سينمائي ممتع، شبيه بتايتانيك جديدة لدى الجمهور.

مثلاً لا ينقل الإعلام أخبار قصص الكوميديا السوداء، ومثلما لا تصلكم أخبار ما تفعله الجيوش الأوربية الديمقراطية حين تمسك ليلاً، في غابة عملاقة، مجموعة من البشر المذعورين، والمنقوعين بالمطر والجوع والبرد. شاهدت كيف ضرب جنود بلغار شاباً باكستانيا بالمسحاة حتى فقد وعيه. ثم طلبوا منا جميعاً أن ننزل في ذاك الزمهرير إلى نهر شبه منجمد. حصل هذا قبل أن يسلمونا إلى الجيش التركي.

يقول علي الأفغاني إنهم كانوا خمسة وثلاثون شاباً عراقياً. شبان حالمون اتفقوا مع مهرب تركي لنقلهم بشاحنة مغلقة لتصدير الفواكه المعلبة من اسطنبول حتى برلين. كان الاتفاق بهذه الصورة: يدفع كل واحد أربعة آلاف دولار، على رحلة أمدها سبعة أيام فقط. والشاحنة تسير في الليل، وتتوقف في النهار عند مدن حدودية صغيرة. وكل من يريد أن يتغوط عليه أن يفعل ذلك في النهار، أما التبول فمسموح به أثناء الليل داخل الشاحنة في قناني الماء الفارغة. ممنوع حمل أي هاتف خلوي أثناء الرحلة. على الجميع أن يلتزم الهدوء، وأن يكتم أنفاسه أثناء التوقف في نقطة حدودية، أو إشارة مرورية، وأن لا يحصل أبداً أي شجار. لكن ما كان يقلق مجموعة شاحنة برلين الحكاية التي نشرتها قبل أيام، الصحف التركية، حول مجموعة من الأفغان الذي دفعوا لمهرب إيراني، مبالغ كبيرة لنقلهم في شاحنة، إلى اليونان. سارت الشاحنة بهم ليلة بكاملها. وقبل بزوغ الفجر توقفت الشاحنة، وأمرهم المهرب بالنزول بهدوء، وأعلمهم أنهم قد وصلوا إلى مدينة يونانية حدودية. نزل الأفغان وهم يحضنون حقائبهم بأحاسيس هي مزيج من الفرح والخوف، وجلسوا تحت شجرة عملاقة. قال المهرب إنها غابة يونانية صغيرة، وكل ما عليهم الانتظار حتى الصباح، وحين تصل الشرطة اليونانية، عليهم أن يتقدموا فوراً بطلب اللجوء. في الصباح نشرت الصحف صورة الأفغان الجالسين في حديقة عامة وسط اسطنبول. لقد دارت بهم الشاحنة طوال الليل في شوارع اسطنبول، ولم تخرج حتى إلى ضواحي المدينة. ومثل جميع قصص النصب والاحتيال، اختفى المهرب وشاحنته، وزُجّ الأفغان في سجن الترحيل.

لكن جماعة شاحنة برلين، لم يكن أمامها خيار آخر سوى المغامرة. فالخوف من حكايات النصب، يعني الشلل، وضياع الأمل، والعودة إلى بلد يخنقه الجوع والظلم. ثم أنهم اعتمدوا على سمعة المهرب الشهير. قالوا لهم إنه أفضل المهربين في تركيا كلها، وأشدهم نزاهة. و لغايتها لم يلق الفشل كما لم يخدع أحداً. إنه رجل ملتزم بدينه، وحج ثلاث مرات، لهذا كانوا يلقبونه بالحاج إبراهيم.

انطلقت شاحنة الحاج إبراهيم من اسطنبول ليلاً، بعد أن تزود (الزبائن) بقناني الماء والطعام. كان الظلام والحر شديدين داخل الشاحنة، وكان الهواء يتسرب إلى الداخل من ثقوب صغيرة غير مرئية. كان الخوف من نفاد الهواء، يدفع الشبان للتنفس بسرعة، مثل من يستعد للغطس في نهر. بعد خمس ساعات من سير الشاحنة، كانت رائحة الأجساد والجوارب المتعفنة والطعام المتبل الذي كان يلتهمونه في الظلام، يضاعف الاختناق. لكن الليلة الأولى كانت ناجحة. في الصباح توقفت الشاحنة في مرآب قرية حدودية، وفتح باب الشاحنة الخلفي، تنفس الزبائن وتجدد الأمل في صدورهم. كان المرآب عبارة عن زريبة سابقة. وأشرف على عملية التغوط شابان. لم يكن مسموحاً حتى النزول من الشاحنة إلى الزريبة، ولا السؤال عن مكان القرية وفي أي بلد هي. أحد الشابين يأخذهم حسب الدور، إلى مرحاض صغير، وقذر للغاية، في زاوية الزريبة. وكان الآخر يشتري لهم الماء أو الطعام، ويعود في آخرة النهار.

في الليلة الثانية، كانت ثمة سيارة مرسيدس، تسير على مسافة بعيدة من شاحنة برلين، لتأمين الطريق، وتزويد سائق الشاحنة بالمعلومات. سارت شاحنة برلين طوال الليلة الثانية بسلام، ولم تتوقف إلا ثلاث مرات لوقت بالغ القصر. في النهار أدخلوهم هذه المرة مرآباً كبيراً، به شاحنات أخرى. وكان سهلاً سماع ضوضاء المدينة.

ثمة سيارة جيب عسكرية، سار أمام الشاحنة في الليلة الثالثة لتأمين الطريق. لم تقطع شاحنة برلين في رحلتها الليلية هذه المرة، سوى خمس ساعات، فقد توقفت فجأة، واستدارت، ثم عادت أدراجها بسرعة جنونية. انقبضت قلوب الشبان في ظلام الشاحنة، وأحسوا بارتباك سائق الشاحنة من خلال قيادته الجنونية. أخذوا يهمهون، وقرأ بعضهم الأدعية، والآيات القرآنية في سره، أو بصوت خافت. كان ثمة شاب صغير أخذ يعيد قراءة آية الكرسي بصوت مسموع، كان صوته جميلاً، خدشته نبرة بكاء، وضاعف من هلع المسافرين. سارت الشاحنة بتلك السرعة ما يقارب الساعة، ثم عادت وتوقفت من جديد. بعدها بربع ساعة استؤنفت الرحلة بسرعة متوسطة، لكن اتجاه السير التبس على الشبان الذين انقسموا بين مؤيد لفكرة أن الشاحنة تعود أدراجها، وبين من يعتقد أنها تواصل الرحلة. كان الشبان على اعتقاد بأن مافيات التهريب هي التي توجه سائق الشاحنة، عبر الهاتف الخلوي، حسب ظروف الطريق ومخاطره، مثل دوريات الشرطة. شعر الركاب أن الشاحنة أخذت تسير على طريق ترابي

متعرج. توقفت الشاحنة فجأة، وأطفأ السائق محرك السيارة، وعم صمت مريب وغامض، داخل شاحنة برلين. صمت شيطاني سيفرخ معجزة وحكاية لا تصدق.

انتظر الشبان الخمسة والثلاثون أكثر من ثلاث ساعات في ظلام الشاحنة. كانوا يتهامسون عما حدث. أراد بعضهم التلصص من خلال الثقوب البالغة الصغر قرب باب الشاحنة الخلفي. كانت ساعاتهم اليدوية تشير إلى السابعة وعشرة دقائق صباحاً. وكان وقت التزود بالماء، فمازال هناك ما يكفي من الطعام، لكن الماء ينفد بسرعة، ثم أن هناك الحاجة إلى التغوط. وهكذا بدأ التذمر. أخذ بعضهم بركل جدران الشاحنة، ومناداة من كان خارج الشاحنة. أعترض ثلاثة شبان وطلبوا من البقية الهدوء. كانت رائحة شجار عالقة في ذاك الهواء الشحيح والمكهرب. كان يتحادثون حسب مصدر الصوت. ويرى بعضهم بعضاً مجرد ظلال داكنة. وعند منتصف النهار كان الجميع تقريباً يطرق على جدران الشاحنة وبابها الخلفي، وهم ينادون ويستغيثون. كان هناك من تغوط في أكياس الطعام. وكانت الرائحة الفظيعة تتراكم داخل الشاحنة مثل طبقات من الحجر، و تشبه أنفاس الشبان مجتمعة، كأن وحشاً يتنفس بصخب في الظلام. وهزمت الرائحة والخوف أعصاب الجميع. فقد نشب شجار و عراك بالأيدي في الظلام، ثم توسعت دائرة هذا العراك. وبعدها بساعة واحدة هدأت الحال. فالعطش أعاد الهدوء. وجلسوا يتهامسون ويتكهنون بأصوات خفيضة وكأنهم خلية من النحل. وبين حين وآخر كان أحدهم يطلق شتيمة، أو يركل جدران الشاحنة. كان أغلب الشبان يحرص في تلك اللحظات على أن يخبأ ما تبقى له من طعام وماء في داخل الحقائب، رغم الظلام الأسود الذي لم تميز فيه الوجه عن القدم، قام هذا وذاك بأفعال لا يمليها ما كان يحدث: واحد أخذ يربط حذاءه، وآخر نزع ساعته اليدوية، وخبأها في جيبه، وثالث غير قميصه في مثل ذلك الظلام. هكذا هي مخيلة الإنسان. تنشط بغرابة في مثل هذه المواقف متحولة إلى جرس إنذار، وحبوب مهلوسة.

في نهار اليوم التالي كانت هناك فوضى عارمة. أراد شبان صغار فيهم ما يكفي من الطاقة للتشبث بالحياة، كسر باب الشاحنة، وآخرون استمروا بالصراخ، والطرق على الجدران. أحدهم توسل واستغاث من أجل جرعة ماء. أصوات ضراط وشتائم. آيات قرآنية، وأدعية قرءوها بصوت عال. بعضهم أصابه اليأس، وجلس يفكر في حياته مثل مريض يحتضر. أما الروائح فكانت لا تطاق، وكفيلة بإبادة أكثر من سرب واحد من الطيور التي كانت تحلق فوق رؤوسهم.

أنا لا أكتب الآن عن تلك الأصوات والروائح التي أطلقت واختفت في دروب الهجرة السرية، بل عن تلك الصرخة المدوّية الوحشية التي دوّت بغتة في الفوضى. بدت كأنها قوة مجهولة جعلت من صخب الشاحنة وفوضاها طبقة قاسية من الجليد. خيّم صمت كثيف لزج يسمح لك بسماع دقات قلب كل

مسافر، كانت صرخة خارجة من كهوف لم تفك أسرارها. بعد سماعهم الصرخة أرادوا تخيّل مصدر هذا الصوت اللا إنساني ، كما اللا حيواني، والذي زلزل ظلام الشاحنة.

أخذت الشاحنة تهتز بعنف وهي في مكانها. تعالى الصراخ والرعب من جديد. بدوا أفواهاً لعملاق شبت به النار. نعم ، بدت أصوات الاستغاثة والوجع تلك مثل حمم البراكين هذه المرة. بدا الأمر كأن قسوة الإنسان والحيوان ووحوش الحكايات الخرافية قد تكثفت، وأخذت تعزف لحناً جحيمياً مشتركاً.

عثرت الشرطة الصربية بعد أربعة أيام على الشاحنة عند أطراف مدينة حدودية صغيرة تحيط بها الغابات من كل الجهات. كانت الشاحنة داخل حقل مهجور للدواجن. ليس مهما الآن ما حدث للمهربين. فهذه قصص متشابهة. ربما علم المهربون بمراقبة الشرطة لتحركاتهم وأرادوا الاختباء لبضعة أيام، أو لسبب تافه آخر له علاقة بخلافات بين مافايات التهريب حول النقود.

حين فتح رجال الشرطة الباب الخلفي للشاحنة، نط شاب ملطخ بالدماء من داخل الشاحنة، وركض كالمجنون صوب الغابة. طاردته الشرطة. لكنه توارى في تلك الغابة العملاقة. في الشاحنة كانت هناك أربعة وثلاثون جثة. لم تمزقها السكاكين، أو أي سلاح آخر، بل كانت أجساداً عملت بها مخالب ومناقير نسور وأنياب تماسيح وأدوات مجهولة أخرى. كانت الشاحنة مليئة بالخراء والبول والدم والأكباد الممزقة، والعيون المقلوعة، والأحشاء، تماماً كما لو أن ذئاباً جائعة كانت هناك. تحول أربعة وثلاثون شاباً إلى عجينة كبيرة من اللحم والدم والخراء.

يانكوفتش الشرطي الصربي العجوز لم يصدق أحد روايته، بل سخروا منه. ولم يدعم شهادته من كان معه. بل اتفقوا معه فيما يخص ذاك الشاب الملطخ بالدماء والذي هرب إلى الغابة.. وكانت الصحف الصربية قد تساءلت عن أسباب اختفاء الشاب، لكن الشرطة ادعت بأنه عبر الحدود إلى هنغاريا.

في السرير يقول يانكوفيتش لزوجته و هو ينظر إلى السقف: لست مجنوناً يا امرأة ... أقول لك للمرة الألف ... ما أن دخل الشاب إلى الغابة حتى أخذ يعدو على أربع، ثم تحول إلى ذئب رمادي قبل أن يختفي فيها...

جريدة عسكرية

إلى قتلى الحرب العراقية الإيرانية (1980 ــ 1988)

سنذهب إلى المقبرة، إلى مشرحة الموتى. نستأذن حراس الماضي. سنخرج الميت عارياً إلى الحديقة العامة. نجلسه على المصطبة، تحت شمس برتقالية ناضجة. سنحاول تثبيت رأسه. حشرة أو ذبابة تطنّ حوله. مع أن الذباب يطنُّ على الأحياء والأموات بقسمة عادلة. سنتوسل إليه أن يعيد علينا الحكاية. لا حاجة لرفسه تحت خصيتيه كي يروي بصدق ونزاهة. فالأموات نزيهون في العادة، حتى الأوغاد منهم .

....

شكرا عزيزي (الكاتب) على إبعاد الذبابة من على أنفي وإتاحة هذه الفرصة المشمسة !

أختلف معك فقط في محاولة تخويف القراء مني وأنت تصفني بالوغد. دعهم يحكمون بأنفسهم أرجوك، ولا تتحول أنت الآخر إلى كلب مسعور. هنيئا لك بالحياة ! فقط لا تتدخل في جوهر الحيوان الذي أنت من فصيلته .

سيدي القاضي: قبل عشرة أعوام، أي قبل أن أنهي حياتي، كنت أعمل في جريدة عسكرية. أشرف على الصفحة الثقافية التي كانت تهتم بقصص وقصائد الحرب. وكنت أعيش حياة آمنة. لديّ ابنة صغيرة وزوجة وفية تجيد الطبخ، وقد وافقت أخيراً على لعق زبي قبل كل مضاجعة. وكنت أحصل من عملي في الجريدة على العديد من المكافآت والهدايا، والتي كانت قيمتها تفوق بكثير راتبي الشهري. وبشهادة رئيس تحرير الجريدة، أكون أنا العبقري الوحيد الذي تمكن من إحياء الصفحة الثقافية بمخيلة قتالية لاتكل ولا تمل. حتى إنني حصلت على تكريم ورعاية خاصة من وزير الثقافة نفسه، ووعدني الوزير سراً بالتخلص من رئيس التحرير وتعييني مكانه. لم أكن عبقرياً إلى هذا الحد

ولا حتى وغداً كما يريد أن يصفني كاتب هذه القصة. كنت رجلاً مثابراً وطموحاً، أحلم بالوصول إلى منصب وزير الثقافة لا أكثر. لهذا كنت منكباً في تلك الأيام على عملي بشرف، وكان عرق جبيني يتصبب وأنا أراجع وأدقق وأصمم صفحتي الثقافية مثل خباز صبور. كلا سيدي القاضي، لم أكن رقيباً على النصوص كما ستتخيل. فالكتاب الجنود كانوا أشدُّ صرامةً وانضباطاً من أي رقيب عرفته في حياتي. كانوا يدققون في كل كلمة ويفحصون حروفها بعدسات مكبرة، فهم ليسوا حمقى إلى هذا الحد ليرسلوا كلمات متباكية أو جمل من العواء والصراخ. كان بعضهم يكتب من أجل أن لا يصدق أنه سيقتل وأن الحرب مجرد قصة حماسية في جريدة. والبعض الآخر كان يبحث عن بعض المنافع المادية والمعنوية. وهناك كتاب أجبروا على ذلك. وكل هذا لا يعنيني، وأنا في هذه اللحظة غير نادم ولا حتى خائف؛ فالميت سيدي القاضي لا يتألم على جرائمه ولا يشتاق إلى سعادته كما تعلم. وإن كنا نسمع بين فترة وأخرى نقيض هذه الحقيقة فهي مجرد مبالغات شعرية دينية تافهة وشائعات مضحكة لا تمت بصلة لأوضاع الموتى البسيطة. لكنني اعترف أنني كنت أتدخل كثيراً في بناء وطرق أداء القصص والقصائد وأحاول قدر المستطاع أن أمد الصور المكتوبة التي كانت تصل من الجبهة بالمزيد من فحم المخيلة. فبالله عليك ما معنى أن يقول أحدهم ونحن نخوض حرباً شعرية: (لقد أحسست أن قصف المدفعية كان شديدا كالمطر، لكننا لم نكن خائفين ..). شطبت وكتبت من جديد : (لقد أحسست أن نيران المدفعية، كانت كرنفالاً من النجوم، ونحن كنا نتمايل كالعشاق فوق تراب الوطن ..) هذا مثال صغير فقط عن طبيعة تدخلاتي المتواضعة .

لكن المنعطف في الحكاية سيدي القاضي، حين وصلت إلى الجريدة خمس روايات، من جندي يقول أنه كتبها خلال شهر واحد. كانت كل رواية مكتوبة في دفتر سميك من تلك الدفاتر المدرسية الملونة. وعلى غلاف كل دفتر كتب في المربع المخصص للتعريف بالدفتر: الاسم والصف والمدرسة. ولم تكن الصفوف تتجاوز المرحلة الابتدائية. وكان كل دفتر يحمل اسماً مختلفاً. وكل رواية كانت تتحدث عن حكاية جندي بنفس الاسم المكتوب على الغلاف. الروايات كانت مكتوبة بلغة فنية عالية مدهشة، بل أجزم أن الرواية في العالم قبل هذه الروايات التي قرأت هي مجرد هلوسات وحكايات فارغة وقزمية أمام عظمة ما كتبه هذا الجندي. لم تكن الروايات تتحدث عن الحرب، فقط أبطالها كانوا جنوداً مسالمين. كانت غوصاً شفافاً وقاسياً حول الكائنات الجنسية من وجهة نظر طفولية وشيطانية في آن واحد. كنت تقرأ عن جنود يلعبون بالمني والضحك وهم بكامل عدتهم العسكرية مع عشيقاتهم في الحدائق وعلى ضفاف الأنهار. عن جنود يصنعون من أفخاذ العاهرات أقواسا رخامية تتسلقها نباتات حزينة بلون الحليب. جنود يصفون السماء في جمل قصيرة شبقة وهم يلقون برؤوسهم على صدور نساء لدنات. كانت أناشيد ساحرة عن الأجساد وهي تنزّ أزهارها المائية .

تحريتُ بسرعة وشغف عن الجبهة التي يقاتل فيها الجندي وعن وحدته العسكرية. عرفتُ أن الفيلق العسكري الذي كان يقاتل فيه، تعرض قبل أيام معدودة من إرسال هذه الروايات إلى هجوم كاسح من قبل العدو. وقد تكبد الفيلق خسائر فادحة في الأرواح والمعدّات. كان لي زميل، يعمل في تحرير صفحة الشجاعة ونياشينها في جريدتنا العسكرية، يهتف كلما شاهدني: لديك دماغ دبابة رفيقي!! تذكرت وصفه هذا، حين أحسست أن الفكرة لمعت مكتملة في أسلاك دماغي الذهبية، وأنا أقلّب في هذه الدفاتر المعجزة. قررت أن أكتب رسالة إلى الجندي أهدده فيها، سأقول له بصرامة وصراحة، بأنه معرض للمسائلة الحزبية وربما سيحاكم عن قريب ويعدم، لأن رواياته كانت تنحرف عن عمد وبطريقة واضحة عن نهج الحزب وحربه العادلة. وكنت أعوّل على رعب الجنود الأزلي المتعارف عليه، لتركه يتخلى عن هذه الراويات، أو أنه سيعتذر لي ويتوسل بمرارة أن أتلف ما كتبه، وأن أسامحه على فعلته الشنيعة هذه والتي لن يكررها مرة أخرى. عندها فقط، سأعرف ما الذي افعله بهذه الروايات الإنسانية الشاهقة. لا أظن أن روائياً كبيراً كان يحلم بأكثر من خمس روايات على هذه القدرة العالية من الابتكار في المزج بين لغة الحلم والواقع، للوصول إلى الجنس العاشر من اللغة؛ وهو الجنس الذي بنيت منه النار، ثم من النار بنيت الشياطين .

لم تكن السماء بعيدة؛ لقد وقفت إلى جانبي بسرعة خاطفة. تلقيت بعد أسبوع من رسالتي إلى الجندي، برقية من فيلقه العسكري تقول أن الجندي قتل في الهجوم الأخير ولم يخرج من فصيله العسكري شخص واحد على قيد الحياة. لقد كدت أن أبكي من فرط السعادة ومن هبات القدر السخية هذه، وأنا اكرر قراءة اسم الجندي المقتول بنشوة لا توصف .

سيدي القاضي. بعد خمسة شهور من نشر الرواية الأولى باسمي (بعد أن ابتكرت عنواناً مميزاً لها). كنت أجوب بلدان العالم من اجل تقديم روايتي الجديدة في حلقات دراسية، قدمني من خلالها أكبر مشاهير النقاد والمفكرين. وكتبت عني أكبر الصحف والمجلات الأدبية العالمية. حتى إنني لم أجد وقتاً كافياً لإجراء المقابلات التلفزيونية والإذاعية. أما نقاد البلاد فقد كتبوا دراسات طويلة عن حربنا العادلة التي بإمكانها أن تلهم الإنسان كل هذا العطاء والحب والشعر. ولقد كتبت رسائل ماجستير ودكتوراه عديدة في جامعات البلاد ، اعتمد فيها الباحثون على نبش كل الدلالات الشعرية والإنسانية في روايتي وتحدثوا عن التناغمات بين الرصاص والمني، بين صوت الطائرات واهتزاز السرير، بين القبلة والشظية، وبين رائحة البارود ورائحة فرج المرأة؛ رغم أن الرواية لم تتحدث عن الحرب لا من بعيد ولا من قريب. وبعد عودتي إلى البلاد سُلّمت في احتفال باذخ كرسي وزير الثقافة نفسه دون أي مشقة. لم أكن مستعجلاً في نشر الروايات الأربع المتبقية. فلقد كان هنالك المزيد مما يمكن أن تدره الرواية الأولى. استبدلت زوجتي ومسكني وملابسي وسيارتي، بحاجيات جديدة من تلك التي كنت اشتهي. يمكنني القول أنني سجدت للحرب ورفعت يدي بالشكر إلى السماء على هذه النعم والهبات التي لا تقدر

بثمن. وكنت واثقاً من أن جائزة (نوبل) للآداب ستكون هنا على مكتبي في الوزارة بعد الرواية الخامسة. كانت السعادة قد فتحت أبوابها مثلما يقولون. إلى أن وصلت ذات يوم على عنواني في الوزارة، ثلاثة طرود كبيرة من الجبهة. كانت تحتوي على عشرين رواية مرسلة من نفس الجندي وبنفس الطريقة. دفاتر مدرسية وأسماء جنود في المرحلة الابتدائية، وقصص حب ومني. شعرت للوهلة الأولى بإرباك هائل، ثم تحول الإرباك إلى فزع جليدي. حملت الروايات على عجل وطلبت من مسؤول مخازن الوزارة أن يعطيني مفاتيح إحدى المخازن. أخفيتها بسرية تامة، وأجريت اتصالات عديدة ومكثفة للبحث عن الجندي. كانت جميع البرقيات تصل إلى مكتبي في الوزارة مباشرة، وكانت جميعها تؤكد مقتل الجندي. كانت أياماً مرعبة. في اليوم التالي وصلت طرود أخرى بروايات تضاعف عددها هذه المرة ومن نفس الجندي وبنفس الطريقة. حملت الروايات من جديد إلى مخزن الوزارة ووضعت أقفالاً إضافية على باب المخزن. لقد مرت شهور قاسية سيدي القاضي، وأنا موزع بين إخفاء الروايات التي ظلت تتدفق بطريقة عجيبة، وبين البحث عن الجندي الذي لم يكن له أثر على طول الجبهة وعرضها. في هذه الفترة كانت الرواية الثانية قد طبعت ونشرت. تلقيت اتصالاً هاتفياً من الرئيس ومن وزير الدفاع ومن مسؤولين في الدولة يمتدحون إخلاصي وعبقريتي. وأخذت الدعوات تنهمر على الوزارة من خارج البلاد. لكنني رفضتها جميعاً هذه المرة وتحججت بأن البلاد أغلى وأهم من كل جوائز ومؤتمرات الدنيا، فالبلاد بحاجة إلى كل أبنائها الأبرار في مثل هذه الظروف العصيبة. في الحقيقة كنت أريد أن أجد حلاً للروايات التي ظلت تنهمر كل صباح بأعداد هائلة مثل عاصفة من الجراد: اليوم مئة رواية. غداً مائتان، وهكذا ...

سيدي القاضي. كدت أن أخسر دماغي الدبابة. أخيراً حصلت على عنوان بيت الجندي. ذهبت لزيارة عائلته للتأكد من مقتله. أخبرتني أمه أنها لم تكن تصدق أنه كان ميتاً. لم يكن هناك سوى ثقب صغير في جبهته. كانت رصاصة قناص. أخذت عنوان قبره من زوجته وتركت لهم مبلغاً من المال. اكتظت مخازن الوزارة الأخرى بالدفاتر. كيف سأشرح للحزب والحكومة أنني كتبت كلّ هذه الروايات؛ ولِمَ أكتبها في دفاتر مدرسية؟ ولم أسماء الجنود وهم في مراحل الدراسة الابتدائية، ولماذا أخزنها بهذه الطريقة؟ كانت هناك عشرات الأسئلة التي لم يكن لواحد منها جواب منطقيّ.

اشتريت مخازن قديمة للطحين في أطراف العاصمة، تحسباً لتدفق المزيد من الروايات . دفعت مبالغ هائلة لثلاثة عمال في الوزارة ليعينوني على نبش قبر الجندي. كان هناك بجثته المتعفنة مثقوب الجبين. حركت جثته أكثر من مرة للتأكد من موته. همست في أذنه. ثم زعقت بصوت عال وشتمته، وتحدّيته إن تمكن من فتح فمه أو تحريك أصغر أصابع يده. لكنه كان ميتاً بما فيه الكفاية. خرجت دودة من رقبته وهي تطارد دودة أخرى، ثم غاصتا من جديد في مكان آخر قرب الكتف .

سيدي القاضي. قد لا تصدق هذه الحكاية. لكنني أقسم لك بجبروتك، أن مخازن الطحين والوزارة اكتظت خلال عام واحد بروايات الجندي. بالطبع لم يتسن لي قراءة جميع الروايات. لكنني كنت استل من كل مجموعة عينة واحدة. أقسم لك أنها لم تكن تتضاعف عددا فحسب، بل كانت تزداد تألقاً وإبداعاً. لكنني كنت أرتجف وأشعر أن نهايتي ستكون قريبة إن لم يتوقف طوفان الروايات هذا.. بالتأكيد لم أترك طريقة ممكنة وغير ممكنة للتحري والبحث. تحريت عن العناوين التي كانت تصل منها الطرود. كانت ترسل بنفس اسم الجندي من أماكن مختلفة من الجبهة. لكن لم يكن له اثر. مع ذلك ، لم يكن بوسعي أن أتمادى في السؤال عن الطرود كيلا يُفتضح أمري .

عدت إلى المقبرة وأحرقت جثة الجندي. طلقت زوجتي الثانية ، وتركت عملي بعد أن أعانني طبيب نفسي في تقديم تقرير يثبت تدهور صحتي. جمعت كل دفاتر الروايات من مخازن وزارة الثقافة ومخازن الطحين القديمة ، واشتريت أرضاً زراعية معزولة، وشيدت فيها محرقة خاصة ومخزناً كبيراً وغرفة ومرحاض، وأحطتها بسور عال. كنت متأكداً من أن الروايات ستواصل تدفقها على عنواني الجديد هذا. لكنني كنت مستعداً لها هذه المرة. ومثلما توقعت، مع صباح اليوم الأول في المزرعة، كنت أعمل بجد ونشاط ليل نهار في حرق حكايات الجنود وأسمائهم في الدفاتر المدرسية الملونة، على أمل أن تنتهي الحرب وينتهي هذا الجنون من أوراق المني الخاكي ..

توقفت الحرب سيدي القاضي بعد سنوات طويلة ومرعبة. لكن حرباً جديدة اندلعت. لم يتبق أمامي من خيار سوى نار المحرقة، وأنت الرحيم الغفور !!

سيدي القاضي ...

والآن وقبل إعادتي لمشرحة الموتى.اعرف أنك قدير وحكيم وعليم ومتكبر. لكن هل كنت أيضاً تعمل في جريدة عسكرية. لماذا لديك محرقة وبشر وحكايات.

العذراء والجندي

في مؤخرة الجثة حشرت زجاجة كحول، ومن اليد اليمنى قطعت ثلاثة أصابع. وهناك جروح فظيعة أخرى، وكأنها من أفعال ذئاب و ليس بشراً. كانت جثة رجل في أواسط الثلاثين من العمر. و لم يكن هو من ضحايا القتل الطائفي الذي اشتد في سنة 2006 في بغداد، رغم أن الجثة كانت قد ظهرت حينها. يبدو أن زجاجة الكحول قد دفعتها قدم أحدهم أو غرزت بكل عناية في مؤخرة الرجل. . لم يكن الرجل شرطياً ولا مترجماً خائناً يعمل مع الجيش الأمريكي، ولا صحفياً ولا قائد ميلشيا، ولا حتى مواطناً عابراً. لم يكن سوى رجل تطارده حكاية شيطانية. الجثة تعود لرجل أسمه حميد السيد، كان قد أطلق سراحه، حين أفرغت الحكومة أغلب السجون من نزلائها قبيل احتلال بغداد في العام 2003.

كان المفروض أن يكون حميد السيد، رجلاً معروفاً لو كانت الصحف، قد كتبت قبل عشر سنوات عما حدث له في معمل خياطة البدلات العسكرية، التابع لهيئة التصنيع العسكري. لكن ما حدث حينها، كان قد عتمت عليه جميع الأطراف المعنية بالأمر، ومن المفهوم أن لكل جهة كان غرضها. حكومة الديكتاتور كانت تعتبر كل حدث خارج القضايا الوطنية الكبرى لا يعدو كونه تفاصيل خالية من المعنى والأهمية. وليس من الحكمة أن يهتم الشعب بأمور وقضايا تشغله عن معركته الحقيقة ضد قوى الامبريالية الغاشمة والصهيونية، خاصة وهو يخوض معركة الحصار الاقتصادي القاسي الذي فرضته الأمم المتحدة بعد حرب الخليج الثانية. أما عائلة حميد فقد تكتمت على الأمر، بدافع الخوف أولاً والخجل ثانياً. بقية الذئاب كانت تقتفي أثر حميد السيد طوال السنوات العشر الماضية. وحين شاهدت أخته الكبيرة ، جثته، تعرفت فوراً على قاتل أخيها الصغير. فالأصابع الثلاثة المقطوعة، كانت الدليل على هوية مرتكب الجريمة.

بدأت الحكاية في العام 1996 في معمل (الكرامة) لخياطة البدلات العسكرية حين عثر مفتشو الأمم المتحدة على حميد وفتاة ميتة في إحدى غرف المعمل. تبدأ القصة في اليوم الأخير الذي سبق عطلة المعمل المشئومة. وقد يكون الله قد تدخل مباشرة في أحداث ذلك اليوم أو أن ما حدث كان من أفعال شياطين مملكة الصدفة، ولربما كان كل شيء من أفعال البشر القذرة .

إنها حركة صغيرة وجميلة لكنها حذرة جداً : فاتن ، تغمز الجندي الذي يمر حاملاً كومة من الأوراق بقلق وارتباك، ثم تنحني فاتن على ماكنة الخياطة من جديد، لتطرز علامة عسكرية على شكل مثلث أحمر فوق جيب بنطال الجندي. بعد قليل ،يعود الجندي حميد السيد أدراجه . يقطع قاعة الخياطات من المنتصف باتجاه سلم حديدي صغير يؤدي إلى الطابق الثاني. لكنه لا يحصل هذه المرة على غمزة أخرى من فاتن. فعيون الجميع هي كاميرات مراقبة. الخطأ في مثل هذا المعمل قد يكلف الكثير. وهذه هي حرب حميد السيد الصغيرة. يدقق في غرفته حسابات المعمل ويصغي إلى أصوات زخات أبر ماكنات الخياطة، ويحب فاتن أو يموت في حبها كما يقول لأخته العزيزة ساهرة. لكنه لم يعثر حتى اليوم على الطريقة المناسبة للقاء فاتن خارج المعمل. حميد يعيش في جانب الرصافة من بغداد في حي الشعب بينما فاتن تعيش بعيدا في حي الشرطة، مع أخوتها الثلاثة وزوجاتهم. ربما عمر فاتن 22 عاماً. لست متأكداً من أنها كانت العذراء الوحيدة في معمل الكرامة. زينب تقول، ربما هناك أكثر من خمس عذراوات في معمل الكرامة. بالمناسبة مدير المعمل يقترح تغيير اسم المعمل إلى معمل (القائد) لخياطة البدلات العسكرية. وقد كتب طلباً رسمياً بذلك إلى هيئة التصنيع العسكري. ومعمل الكرامة هذا سيكون في عطلة لمدة خمسة عشر يوماً بدءاً من يوم غد. أخبروهم أن هذه العطلة هي مكرمة من السيد الوزير. تكون أيام هذه العطلة المشؤومة – بالنسبة لحميد – بمثابة قرن . كانت فاتن تذكّرُ دائماً في رسائلها بأخوتها كلما حاول حميد إقناعها على موعد لقاء خارج أسوار المعمل.

ـــ حميد إذا أخوتي عرفوا يذبحوني مثل الدجاجة .. أنت مخبل .. آني ما أطلع حتى بباب البيت!

لا يعرف حميد كيف سيتحمل أيام العطلة، من دون ابتسامة فاتن التي كان يأخذها كل يوم معه إلى البيت، ليتأملها قبل النوم ساعات طويلة. ثم يقبلها وينام.

كان مدير المعمل قد طلب ذلك اليوم أبا فاضل عبر الهاتف. لفّ أبو فاضل الجريدة التي كان يأكل فيها، الباذنجان والبصل على عجل، ومسح فمه بكفه. هذا الرجل الذي يبدو كأنه خارج للتو من المقبرة بسبب نحوله المخيف هو في نهاية الخمسين من العمر، وهو صاحب (المفتاح الأول) الذي تدور حوله الشبهات. لم يكن أحد قد رأى من قبل بواب المعمل أبا فاضل مرتدياً بنطالاً آخر غير بنطال القماش الرصاصي، أما بدلته الرمادية الواسعة فتشبه حزن أبواب الأحياء القديمة. أبو فاضل يحفظ جميع أسماء البنات الخياطات، وهي قدرة عجيبة حقا. أسماء الجنود يمكن حفظها بسهولة . فهناك سبعة منهم فقط في المعمل. ومن غير المدير العقيد زهران، والبواب أبو فاضل، هناك: حميد، ورحمن في غرفة الحسابات والتدقيق، وصادق وعمر، المسئولان عن الإشراف على الشاحنات التي تستلم البدلات العسكرية من البوابة الخلفية للمعمل. وهناك النايب ضابط جاسم خضير، ومساعداه خلف ومروان . النايب ضابط مسوؤل عن صيانة ماكنات الخياطة. أما بقية أمور المعمل فتديرها العاملات. لكن العقيد

زهران، هو الوحيد من بين رجال المعمل الذي يمكنه مشاهدة البنات الخياطات، طوال الوقت. فهو يجلس في غرفة جدرانها من الزجاج، وتواجه قاعة الخياطات مباشرة في الطابق الأول. في الطابق الثاني توجد غرفة الحسابات، وثلاث غرف صغيرة للوازم الخياطة، تجاور السلم الذي ينزل إلى الطابق الثاني. إنه معمل صغير جداً، لكنه نشيط، فهو مختص بخياطة بدلات كبار الضباط فقط. اليوم هو أنقاض بعد أن قصفته الطائرات الأمريكية قبل احتلالها بغداد.

في غرفة العقيد، يصعد أبو فاضل فوق كرسي لينزل صورة الرئيس المعلّقة خلف مكتب العقيد. يعطيه العقيد صورة جديدة للرئيس. الصورة القديمة يرتدي فيها الرئيس الزي العربي، وفي الصورة الجديدة يرتدي بذلة عسكرية. يشكر العقيد أبو فاضل، ثم يخرج من أحد أدراج مكتبه كومة من المفاتيح.

يستل مفتاحاً صغيراً ويعطيه إلى أبو فاضل الذي يضيفه إلى سلسلة مفاتيحه، وهو ينحني باحترام أمام العقيد قبل أن ينصرف. ولو خرجنا الآن إلى قاعة الخياطات، لشاهدنا (المفتاح الثاني)، وهو مفتاح صبرية المسؤولة عن مراقبة عمل الخياطات. تدور صبرية طوال الوقت بين ماكنات الخياطة، وهي تحرك بأصبعها حلقة المفاتيح، وترصد كل حركة في المعمل. لا أحد يطيق صبرية العاقر القحبة هذه. هكذا يسمين البنات المسؤولة عن مراقبتهن. ولولا شعر صبرية الأسود الطويل، لما كان هناك ما يدلّ على أنها امرأة، هذا حسب ما قاله الجندي رحمن. وهو محق تماماً. فهذه المرأة تشبه مصارعاً من الوزن الثقيل. بالمناسبة صبرية، وقلّة من البنات يكشفنَ عن شعورهنّ في معمل الكرامة. فأغلب البنات من المحجّبات، ويلبسن بذلات عمل نسائية، بلون أزرق داكن. صبرية من الجيل السبعيني الذي لم يستوعب بعد عودة الحجاب وصعود موجة التشدّد الديني، لكنها غيورة وحسودة بطريقة مقرفة. تراقب كل حركة، وكل ضحكة، وكل همسة تصدر من البنات، بعين صقر.

في الطابق الثاني نعثر على (المفتاح الثالث) وهو مفتاح الجندي رحمن. لكننا لا نفهم تماماً ما هو هذا المفتاح . فلربما هو مفتاح شخصي لا غير. الجندي رحمن هو زميل حميد السيد في غرفة الحسابات. يخشى حميد لسان رحمن ، فربما تفلت منه كلمة حول علاقته بفاتن. لا يخاف حميد السجن كثيراً. لكن مبعث قلقه الخشية من أن تشوّه صورته في ذهن مدير المعمل العقيد زهران الذي يعتبر حميد مثال الجندي المستقيم، والإنسان الصالح. وقد نصح العقيد حميد بأن يفكر بجدية في الزواج، وأن يتمّ دينه. ودعاه إلى المباشرة فوراً بأداء الصلاة والتوبة إلى الله، فهذه الدنيا فانية. قد يضمن حميد سكوت زميله مقابل تغاضيه عن ذهاب الأخير كل نصف ساعة إلى مرحاض الرجال. رحمن يستغل وجود المرحاض في الطابق الأقرب السلم. حيث يوجد إلى يمين السلم مرحاض النساء، وإلى يساره مرحاض الرجال. يمتع رحمن نظره قليلاً بوجوه البنات الخياطات، ويستنشق الرائحة التي تتبخر من عرق أجسادهن، وكأنها رائحة الجنة. يدخل رحمن المرحاض، ليؤدي في كل مرة نفس الحركة

المربكة: يبحث في جيوبه، يخرج علبة كبريت من جيب بنطاله الخلفي، وهو يمسك بشفتيه السيجارة. يستل الصورة من جيب آخر، يسقط مفتاحاً صغيراً أثناء ذلك، يعيده، يشعل سيجارته. إنها صورة ممثلة تركية مشهورة عارية. يبدأ رحمن مضاجعته الافتراضية، يضغط على شفتيه وهو يحدّق في ثقب طيز التركية. إلى أن يلطخ المني يده.

تحرك زينب منصور يدها قرب سحّاب البنطال العسكري، كرجل يمارس العادة السرية، قبل أن تركل مؤخرة البنطال بحركة مسرحية مرحة، لتنفجر البنات الخياطات بالضحك. زينب هي صاحبة (المفتاح الرابع) وتملك حرية الحركة في المعمل بحكم عملها كمساعدة لصبرية العاقر. زينب هي أعزّ صديقات ساهرة، أخت رحمن الكبيرة. تعمل كساعي بريد أثناء العمل بين فاتن وحميد. تنقل الرسائل المكتوبة حين تصعد إلى الطابق الثاني لجلب بعض لوازم الخياطة. هي فتاة مرحة وذكية وتعتقد بعض الفتيات إنها مثلية. ضحكت زينب في ذلك اليوم طويلاً وهي تصغي إلى النايب ضابط خضير، وهو يتحدث عن أعطال ماكنات الخياطة بجدية، وكأنه بروفسور في علم الأحياء. يقول بهدوء وثقة وشيء من الضجر:

– تنكسر الإبرة أكثر من مرة أثناء التمكين لأسباب عديدة، عدم ثبات القدم الضاغطة في مكانها، أو أن وضع المكوك غير صحيح، أو عند جذب القماش بشدة أثناء التمكين. أما انقطاع الخيط عند الإبرة، فسببه هو أن سير الخيط غير صحيح، أو أن قوة الشدّ للخيط غير مناسبة، وإن كانت أسنان المشط غير نظيفة ومتآكلة، فإن الغرز تكون غير متساوية، ومع أن البنات الخياطات محترفات، لكنهن يرتكبن في كثير من الأحيان أخطاء الخياطة المبتدئة...

تصغي زينب إليه بمرح، حين يمرر لزينب أثناء حديثه المتواصل ثلاثة مفاتيح، تضعها في جيب بذلة العمل من دون أن تقاطع حديثه.

قد تكون هناك مفاتيح أخرى لكنني اخترت هذه المفاتيح فقط، بسبب إيقاع الحكاية التي كانت ترويها زينب.

في صباح اليوم الأول من أيام عطلة معمل الكرامة، كان يدور في الفضاء الخارجي قمر صناعي تجسسي أمريكي يلتقط صوراً بأحجام مختلفة للمعمل الصغير. هذا المعمل الذي دوخ لجنة مفتشي الأمم المتحدة عن الأسلحة المحظورة دولياً. كانت الحكومة تتعمد تضليل المفتشين. فهي لم تسمح للمفتشين بزيارة المعمل، سوى مرة واحدة فقط. في الحقيقة لم يكن هناك في المعمل سوى البدلات العسكرية. لكن غرض الحكومة أن يشك مفتشو الأمم المتحدة في أن المعمل يستخدم لأغراض عسكرية محظورة.

كان لمكان المعمل على أطراف بغداد في أرض جرداء مهجورة، دورٌ في زيادة الشبهات حوله. وربما كان المعمل يستخدم في السابق لأغراض عسكرية سريّة. فتصميمه الأول لم يكن يدلّ على أنه معمل للخياطة. كما أن الأبواب الحديدية السميكة لغرف الطابق الثاني، وهي غرف صغيرة خالية من النوافذ قد أثارت الشكوك. ويبدو من بلاط أرضية قاعة الخياطات، كان المكان يستخدم كمختبر. ولا يقرب أقرب شارع عام معبد عنه سوى 5 كم. هناك بوابتان رئيستان للمعمل. واحدة في الخلف وتستخدم لدخول الشاحنات. والبوابة الرئيسية لدخول وخروج العمال، حيث كابينة البواب أبو فاضل، والذي كان يقفل الباب الرئيسي بعد العمل.

في صباح ذلك اليوم لم تكشف بالطبع أشد صور القمر الأميركي وضوحاً الصراخ المكتوم في الطابق الثاني. كان صراخاً خافتاً، يائساً، قادماً من نهاية عالم يحتضر، ومتجهاً إلى قاعة البنات الخياطات الفارغة. والتي كانت تبدو كمشهد غروب بائس فوق مدينة مهجورة. فاتن صرخت وانتحبت طوال الليل مثل حيوان مذبوح. بكت، وأشعلت النار بصراخها في غرفة لوازم الخياطة، بينما جلس الجندي حميد في زاوية الغرفة محاولاً السيطرة على يديه اللتين كانتا ترتجفان، مثل غصن في العاصفة.

كانت خالتي زينب هي الأخرى تبكي بمرارة كلما أعادت حكاية ما حدث في ذلك اليوم. اتهمت الجميع، ثم أخذت تستغفر ربها على ظنونها. تقول خالتي: كنا قد انتهينا من العمل، وكانت البنات في غرفة تبديل الملابس، بعضهن غيرن ملابسهن وغادرن بسرعة. كنت قد نقلت في الساعة الأخيرة من العمل رسالة حميد لفاتن التي يرجوها فيها أن يتحدثا قليلا في الطابق الثاني، ليستغلا وقت تبديل الملابس. وكانت فاتن قد تحججت بالذهاب إلى مرحاض النساء لأنها تعاني من الإسهال. كنت أظن أن حميد سيحدثها لدقائق قليلة. كان على فاتن أن تلحق بالباصات التي تقلنا إلى المدينة. صحيح أنه في ذلك اليوم كان هناك صخب ومرح وضحك في الباصات بسبب العطلة المفاجأة ، لكن الم تنتبه زميلات فاتن لغيابها؟ الله اعلم ، أخبرتك إنني كنت أستقلّ باصاً آخر.

-هل تظن أن رحمن هو الذي ارتكب هذه الجريمة؟

- لا، لا، لا يمكن أن يقوم رحمن بمثل هذا العمل، انه جبان جداً.

-ماذا لو كان العقيد نفسه أراد الانتقام منهما.

قال أبو فاضل أنه لم يقفل غرف الطابق الثاني بسبب العطلة. وصبرية أكدت أيضاً الأمر نفسه. فأبواب غرف لوازم الخياطة، كانت تبقى عادة مفتوحة. ثم أن العطلة كانت 15 يوماً فقط.

(ليش ياربي ، ليش ما اجوا المفتشين بثاني يوم لو ثالث يوم ... شلون حظ أسود عندها فاتن الحبابة .. المفتشين دخلوا المعمل بعد أسبوعين من العطلة .. الدنيا هاي ما تنفهم والناس يخوفون خالة ..)

ــ لم لم تخبريهم بالحقيقة ؟

ــ أي حقيقة...

ــ بموضوع الرسالة ، ربما تكهن أحدهم أن فاتن وحميد كانا في المعمل ...

ــ من وصلوا أخوة فاتن الثلاثة إلى بيتنا وتحدثوا مع زوجي ... أخبرتهم بقصة الحب بين فاتن وحميد كلها. كان الجميع يظن أن حميد وفاتن هربا إلى مدينة أخرى، حتى انه كانت هناك إشاعة تتحدث عن هروبها خارج البلد...

كان حميد يمسك بيد فاتن المستندة إلى الجدار، وهو يحاول إقناعها بموعد لقاء أثناء العطلة. كان صخب أصوات البنات يصلهما من غرفة تبديل الملابس. فتح حميد باب غرفة لوازم الخياطة الثالثة وسحب فاتن إلى داخلها ثم وارى الباب خلفه. وسط الغرفة كانت هناك كومة كبيرة من البدلات العسكرية غير الصالحة للاستخدام نتيجة بعض الأخطاء في تصاميمها. ولم يكن في الغرفة سوى صناديق تحوي لوازم الخياطة من خيوط، ومقصات قماش، بحجم كبير، وأشياء أخرى صغيرة. رمت فاتن نفسها فوق كومة البدلات، وراح حميد يقبلها بشغف في كل مكان من وجهها. كانت فاتن مستسلمة للذة القبلات، وتحاول أن تكتم آهاتها، قبل أن تسمع صوت خطوات تقترب من باب الغرفة.

يقول الجندي حميد السيد في المحكمة العسكرية: أنه سمع خطوات شخص قادم في الممر. فاختبأ مع فاتن أسفل كومة البدلات العسكرية، ثم سمعناه يتوقف أمام باب الغرفة . فتح باب الغرفة قليلاً ومد يده من دون أن يدخل الغرفة، وفتح زر مصباح الغرفة المظلمة، ثم أطفئه من جديد.

ــ هل شاهدت يده، هل هي يد رجل؟

ــ لا ، لم أشاهد يده!

ــ كيف عرفت أنه لم يدخل الغرفة؟

ــ قدرت ذلك من الضوء الداخل من الممر!

ــ ما الذي حدث بعد ذلك؟

ــ أدار المفتاح في ثقب الباب .. وانصرف ..

ــ والآن اخبرني بحق ربك، إن كان لديك رب، لم اغتصبتها؟

ـــ أقسم بالله العظيم سيدي إنني لم اغتصبها، في اليوم الثالث كنا نموت من العطش. ولقد يئست من محاولة كسر الباب .. قالت لي أن خروجنا من المكان يشبه موتنا هنا داخل هذه الغرفة ... في كل الأحوال سنقتل ..ثم طلبت مني ممارسة الجنس..

ـــ هل كنت تعرف أنها كانت عذراء؟

ـــ نعم .. أعرف ..

ـــ اسمع .. أنت شيطان، وسفاح، وكلب، وابن قحبة، وكان من المفروض أن تموت من العطش والجوع هناك في الغرفة، لكن الشياطين من أمثالك محظوظون. يمكنني الآن أن أطلق على رأسك رصاصة من دون أن يحاسبني أحد.. لقد عشت على دم ولحم إنسان ميت. هل كانت على قيد الحياة حين ارتكبت جريمتك المقززة الثانية ؟

ـــ اقسم لك سيدي إنني لم أكن في وعيي، مرت سبعة أيام على سجننا في الغرفة.. وكانت فاتن تتمدد وسط الغرفة ميتة ..

ـــ لكن تقارير الطبيب تقول أنها لم تكن ميتة... بعد حين قطعت أصابعها...

ـــ اقسم أنها كانت ميتة .. لم أكن حينها أقوى على فتح عيني من شدة الإعياء والجوع والعطش .. حاولت أن أشرب قليلاً من البول، لكن...

ـــ لكن ماذا؟

– شربت دمها ..

– دعني أصدق أنك إنسان من لحم ودم .. حسناً، لم أكلت ثلاثة أصابع من يدها ..أستغفرك ياربي ... مثلا ، لمَ لمْ تأكلْ أي جزء آخر من جسدها؟

ـــ فكرت أن الميت ربما يتألم أيضاً، وربما تكون الأصابع اقل إيلاماً!

ـــ حميد السيد، هل قمت بقطع ثلاثة أصابع من يد فاتن قاسم؟

ـــ نعم سيدي ..

ـــ هل قطعت الأصابع الثلاثة بمقص القماش؟

ـــ نعم سيدي ...

ــ هل أكلت الأصابع الثلاثة ؟

ــ نعم سيدي .. أكلتها.

حقيبة علي

حين سقط تمثال الديكتاتور في بغداد نشب عراك طاحن في صالة مشاهدة التلفزيون. اشتبك ستة شبان سودانيين بمجموعة من العراقيين المحتفلين بسقوط الديكتاتور. ما قاله يوسف السوداني كان قد أشعل الشرارة: سينيك الجنود الأمريكيون نساءكم ... لم أنتم فرحون جداً؟

حاول الأفغان وبضعة شبان نيجيريين فض العراك. أما الإيرانيون فخرجوا من الصالة، وأخذوا يتفرجون من الشبابيك. سالت دماء كثيرة ، ونقل شاب سوداني إلى المستشفى. بعد أن شُجَّ رأسه، وفقد الوعي. وقبل أن تصل شرطة مكافحة الشغب، كانت تنبعث من الصالة رائحة كريهة، أما أثاث الصالة فقد حطم بالكامل.

تفرجت على المعركة بأعصاب باردة من باب الصالة. لقد مضى أكثر من ثلاث سنوات على وجودي في محطة استقبال اللاجئين في هذه المدينة الإيطالية الصغيرة، وقد شهدت عدة معارك طاحنة. وقد تنشب بسبب مسحوق غسيل أو لباس داخلي نسائي، وهذا ما حدث مع لباس بروين الكردية.

مرة أخبرت بروين النزلاء الأكراد بأنها شاهدت شاباً باكستانياً وهو يسرق لباسها الداخلي من حبل الغسيل. وهكذا اندلعت معركة شرف بين الباكستانيين والأكراد لم تتوقف إلا بعد ثلاثة أيام. وقد استعان مدير المحطة بالشرطة بعد أن عجز الحراس في المحطة عن وقف القتال.

ما أثار فضولي في معركة صالة التلفزيون هو علي البصراوي، كان يحضن حقيبته ويجلس في زاوية الصالة مبتسما كالمجانين. هذا الشاب الرقيق تغير كثيرا منذ وصوله إلى المحطة. دعوته في المساء لشرب القهوة في غرفتي للاطمئنان عن أحواله وتوديعه. كان قد قرر إكمال مشوار رحلته إلى فنلندا. لست مقتنعاً تماماً بهذا القرار. نصحته بالذهاب إلى ألمانيا أو إلى أي بلد آخر، فربما تكون فرص العمل أفضل. تحدثنا طويلاً ذلك المساء عن أحلامه، ومخاوفه، وخططه. أخبرني أنه تمكن من سماع

صوت أمه. كانت تحدثه بحب، وتسدي له النصح، لكنها كانت تعاتبه أيضاً على ما حدث لرأسها في الغابة اليونانية. كان سعيدا هو الآخر بسقوط الديكتاتور، رغم قلقه من فكرة أن تتوقف الدول الأوربية عن منح اللجوء للعراقيين. قلت له قد تتغير الأمور في البلد ونعود جميعا إلى بيوتنا وأهلنا. غير أنه ذكرني بحقيبته الرصاصية. ليس لي أي أهل، ولا أصدقاء، ولا أمل...كل ما أملكه حملته في حقيبتي...أتمنى أن أتمكن من أخذ أمي إلى مكان آمن، ومريح، فالمسكينة تعذبت طويلاً ...

يخيل لي في كثير من الأحيان، أنني سأقضي حياتي في الكتابة عن القصص والسورياليات التي عايشتها في دروب الهجرة السرية. أنه سرطاني الذي لا أعرف كيف أشفى منه. أخشى أن أنتهي بطريقة كوميدية مثل نهاية الكاتب العراقي خالد الحمراني. ظل طوال حياته يكتب عن السوق الشعبي القريب من سكنه. وحين أزيل السوق وشيدت مكانه بنايات سكنية، انتحر الحمراني، مخلفاً ست مجاميع قصصية، جميعها، تحاكي عالم السوق ودهاليزه.

مرة كنت أتحدث مع روائي شاب ألماني حول بعض تجاربي الشخصية في الهجرة السرية، وأفكاري في تحويل ما عشته إلى مادة أدبية متخيلة. وعندما جاء دور الشاب الألماني في الحديث أخبرني، أنه لم يكتب شيئاً يستحق الذكر، وإنه يعتقد بأن صغر سنه، وقلة تجاربه في الحياة هي سبب هذا العقم. شعرت أنه كان يريد أن يقول بأنه يحسدني على كل التجارب الحياتية الغريبة والمؤلمة التي عشتها. وبدل أن يمنحني ما قاله امتيازاً، شعرت بخجل شديد. فقد نبهتني ملاحظاته من جديد، على حقيقة أي كائن محطم وتافه هو أنا. تملكني خجل مرّ يشبه خجل ذلك الرجل الذي تحدث عنه تاركوفسكي: رجل يتعرض لحادث في الشارع فتقطع ذراعه، وحين يتجمع المارة حوله بانتظار وصول سيارة الإسعاف، يخرج الرجل منديلاً، ويحجب ذراعه من نظرات الآخرين إليه...

لكن حكاية علي البصراوي، كانت تغويني طوال الوقت للكتابة عنها، وعلى الرغم من أنها مثقلة بالأسى والعتمة مع مشاهد قليلة من سينما العالم الثالث التي تحاول استجداء عواطف مشاهدي الغرب، غير أنها أكدت لي في كثير من الأحيان على شعرية الوجه الإنساني المخبأ كجوهرة تحت ملايين الأطنان من زبالة هذه الحياة التافهة. وربما لكوني شاعراً، وأعيش لاجئاً في مثل هذا المكان ــ زريبة الأبقار، أملك قلباً قاسياً، أو ربما دماغاً لا يخلو من حكمة العبث السخيفة... دماغٌ يحاول أن يعبر بكلمات شحيحة، عن غضبه وشغفه بجوهر الرعب الإنساني، في آن واحد. لكنني كلما التفت إلى شجرة، أو تأملت ليلة مليئة بذئاب الشك، تفتق في قلبي ينبوع من الحزن الطفولي الساذج. أنا أعتقد بأن على الكتابة أن لا تعرج بسبب العاطفة المتواضعة التي تفوح من قمصان الجموع البشرية، والتي

تتشابه، كمجموعة من المراحيض في حمام واحد. لكن حكاية علي، تسللت إلى دمي، وتمكنت من حلب دموعي ليالي عديدة. لقد بكيت على قلبي المتحجر، وبكيت لأن العالم أنقى وأجمل مما هو عليه بكثير.

حين وصل علي البصراوي إلى محطة اللاجئين في العام الماضي، حدثت ضجة كبيرة. أقام النزلاء حفلة صاخبة من الضحك والسخرية، حول ما كانت تحويه حقيبته الرصاصية. حقيبة سفر تصميمها يعود إلى خمسينيات القرن الماضي. وحال وصول علي، استدعى المسؤولون الشرطة التي حجزته ثلاثة أيام ثم أطلقت سراحه، لكنها لم ترجع له الحقيبة إلا بعد ثلاثة أشهر. أثناءها تم فحص الحقيبة في مختبرات العاصمة. و مدير المحطة صدمه خبر إعادة الحقيبة بجميع محتوياتها.

في تسعينيات القرن المنصرم، كان علي يعيش مع إخوته السبعة الذين يكبرونه سناً في أحد الأحياء البائسة في البصرة. كان والده حارساً ليلياً لبضعة محلات تجارية في وسط المدينة، وكانت أمه، مثل أغلب الأمهات العراقيات، عبارة عن كائن صبت على رأسه وحول الحزن والظلم والوحشية. يسهل للغاية نفي وجود الله عند معرفة يوم واحد من حياة أم عراقية. قد تبدو هذه المشاعر مجرد عاطفة رومانسية ساذجة. لكن لو كانت هناك كاميرات خفية تعرض للعالم ما يحدث للمرأة في بيوت الكراهية العراقية، لتكلم الحجر، شاتماً وجوده ومن أوجده. أخوة علي كانوا قد ورثوا عن أبيهم الإدمان على تحميل الأم كل مصائب ومشاكل الفقر والأقدار. كانت تضرب من أجل أتفه الأسباب. وكانت الأم تعاتب دوماً ربها الذي لم يرزقها ببنت، تعاونها في أمور البيت وتعطف عليها. لم ينس علي بسهولة، ذلك اليوم الذي واصل فيه الأخ الأكبر لكم رفس المرأة المسكينة إلى أن غابت عن الوعي، و لأنها لم توقظه كي يذهب إلى السوق بحثاً عن عمل. كان رد فعل الأم الوحيد، على ما تتلقاه من عنف وإهانة، هو الجلوس قرب دولاب الملابس القديم والبكاء، ومناشدة الأولياء الصالحين لتخليصها من ظلمها. كان علي صبياً آنذاك. وكانت الأم تضمه إلى صدرها وتنتحب. ربما كانت تحضن ولداً سيكبر ليضربها.

يقول علي إنها حين تتعب من البكاء كانت تخرج من دولاب الملابس، حقيبتها الصغيرة . الشيء الوحيد الذي تملكه – حقيبة سفر قديمة، فيها مشط خشبي، ومرآة، وصورة للإمام علي، وقرآن ملفوف بقطعة قماش خضراء، وصورة لها بالأبيض والأسود، حين كانت شابة، تجلس مع أبي على الكورنيش. كانت تفك فوطة رأسها السوداء، وتبدأ بتمشيط شعرها الأبيض مثل البلهاء ساعة بكاملها، وهي تدندن بلحن أغنية قديمة، تتحدث عن الحنين إلى الأم.

لكن ربما لقي دعاء المرأة المتواصل لتخليصها من هذه الحياة، آذاناً صاغية لدى شياطين السماء. فقد ماتت فجأة بالسكتة الدماغية . لينتظر علي بعد موتها سنوات أخرى، قبل أن يحقق انتقامه من أخوته وأبيه كومة الخراء الذي يعيش اليوم مشلولاً فوق كرسيه المتحرك.

خطط علي لكل شئ بهدوء ودقة لأكثر من عام. كان القرار هو الهروب إلى إيران أولاً. وفي ليلة الرحيل دخل غرفة أمه، وأخذ حقيبتها ثم تسلل هارباً. كان صديقه عدنان ينتظره في طرف الزقاق وهو يحمل معولاً ومسحاة في شوال. أشعل الصديقان سيجارتين وانطلقا صوب المقبرة. كانت السماء صافيةً، وثمة قمرٌ بحجم الألم ينير القبر الذي نبشه الصديقان. وبقطعة قماش برتقالية، نظف علي عظام أمه ثم وضعها في حقيبتها القديمة.

حمل علي أمه في الحقيبة وهرب إلى إيران. كان سعيدا بانتقامه. متخيلاً وجوه الجميع الممتقعة كما وجوه الموتى حين يكتشفوا الأمر. ولم تفارقه حقيبة العظام طوال رحلته الثانية إلى تركيا عبر الجبال. كان ينام في الوديان مع المهاجرين الآخرين، وهو يحضن الحقيبة بقوة، وحب، وتقديس. كانت حقيبته الغريبة ومبالغته في الحرص عليها، سبباً للتندر والهزء. لكنه لم يكن يأبه لذلك، ولم يكن يفضي بسرّ الحقيبة لأيٍّ كان. عمل طوال عام في اسطنبول في معمل لصناعة البالونات، كي يقدر على مواصلة رحلته في دروب الهجرة السرية. وطوال عام، وعلي، يحدث أمه في الليالي، عن البلد البعيد الذي اختاره للعيش بسلام. وعن رغبته في البدء بحياة جديدة ونسيان العذاب. لكنه صار يعاني بسبب الأم التي حشرها في حقيبة...

وحين حلت أقسى أيام البرد في اسطنبول، كان علي قد اتفق مع مهرب للسفر معه مشياً على الأقدام عبر الحدود التركية اليونانية. فالشتاء هو أفضل الفصول لعبور الحدود، حيث يتكاسل الجنود حراس الحدود عن القيام بدورياتهم اليومية. رغم أن علي كان خائفاً من موضوع النهر الذي سيعبرونه. لكن المهرب طمأنه وأكد له بأن العبور سيكون بواسطة قارب يكفي الجميع، فلا يمكن السباحة في نهر بارد. رغم ذلك اشترى علي أكياساً من النايلون، وقام بلف عظام أمهً.

ما أن سارت المجموعة خلف المهرب في الغابة حتى صاح جنود الحدود اليونانيين على المجموعة، وأمروهم بالتوقف. لكن المهرب طلب منهم أن يعدوا خلفه بأقصى سرعة، هاربين في ظلام الغابة، بين الأشجار الكثيفة. تاركين أطراف الأغصان تجرح وجوههم، وتمزق معاطفهم الشتوية. كان علي يركض بأقصى سرعته، وهو يضم الحقيبة إلى صدره، محاولاً أن يلازم المهرب لكي لا يظل طريقه،

إلا أن اصطدم في جذع شجرة، ليرتد إلى الخلف ويسقط أرضاً، وتتناثر عظام أمه في ظلام الغابة. انحنى على الأرض، وهو ينزف من مقدمة رأسه، محاولاً جمع ما تناثر من العظام بذعر وإرباك. كان يتلمس العظام بحذر، قبل وضعها في الحقيبة من جديد. مسح الدم من فوق عينيه، وواصل الهرب مترنحاً. كان صياح الجنود يصل من بعيد بين الحين والآخر.

لقد نجت المجموعة من كمين جنود الحدود بإعجوبة، وبفضل ذكاء المهرب، ومعرفته دروب الغابة. لكن شاباً إيرانياً وآخر كردياً تاها في الغابة، وربما أمسك بهما الجنود. أما بقية المجموعة فقد وصلت إلى العاصمة أثينا بسلام. وسلم المهرب من تبقى منهم إلى مهرب يوناني عجوز، لنقلهم عبر البحر إلى إيطاليا.

أثناء مكوث علي في بيت في أثينا لتهريب المهاجرين، فحص ما في الحقيبة. كانت عظام أمه، والمرآة، والمشط الخشبي، وصورة الإمام علي، والقرآن كلها في مكانها. لكن ما كان مفقوداً هو الرأس الذي كان يلامس رأسه ويحنو عليه ...

أكيد أن علي سيمضي مع حقيبة العظام إلى مكان آمن يدفنها فيه، و لا أحد غيره يعرف الطريق إليه. وقد يسمع هو وحده إحدى أغاني الأم التي ضاع رأسها في تلك الغابة ...

مجنون ساحة الحرية

قبل أن تحدث المعجزة، واكتشف الحقيقة التي يرفضها أو يتناسها الآن الجميع، كنا في تلك الأيام التي لا تنسى، نحرس طوال الليل منصة التمثالين.

كانت في حوزتنا أسلحة خفيفة، وثلاثة مدافع هاون، وسبع قاذفات آر بي جي.

رفض وجهاء الحي، وأصحاب الرأي أمراً صادراً من الحكومة الجديدة بإزالة التمثالين. كانت لدينا معلومات أن الجيش سيقتحم الحي ليلاً. كنت أفكر حينها، أن هذه القضية ليست معركتي. لكن خداع النفس كان أهون علي بكثير من عار الهروب. ربما تنشب المعركة في أي لحظة. وربما أفقد حياتي من أجل هذين الشابين الحجريين، اللذين ينتصبان فوق المنصة بحركة ساذجة، وكأنهما على وشك السقوط من أعلى على أنفيهما. من الواضح أن النحات الذي قام بالعمل كان مجرد عامل بناء لا يفقه شيئاً في أمور النحت. لدى الإسلاميين المتشددين فتوى بإزالة جميع التماثيل في البلاد، لأنها أصنام تتعارض مع الشريعة. أما الحكومة الجديدة فقد قررت إزالة كل ما يرمز لفترة النظام الديكتاتوري السابق. رأى أهل الحي ووجهاؤه أن التمثالين لا علاقة لهما بالنظام السابق، ولا بفتاوى التحريم. لم أكن أصدق مثل هذا العبث .

قال أبي أنها معركة رمزية مصيرية من أجل مستقبل الحي. لا أدري كيف يؤمن أبي بمثل هذه الخرافات، وهو الذي يدرّس العلوم في المدرسة الثانوية. طبعاً هناك عشرات الروايات عن قصة تمثال الشابين. لكن ربما ما كان جدي يرويه هو أكثر الروايات قرباً من الحقيقة، فصبغة الواقعية في حكاية جدي كانت تضاعف من سذاجة أهالي الحي، على عكس نيته في إظهار طيبة وذكاء وكرم الأهالي. هذا ما كان يدور في ذهني حينها، قبل أن تتغير حياتي إلى الأبد.

ربما من الأفضل أن أعيد لكم بإيجاز صياغة حكاية جدي أولاً، قبل أن أروي ما حدث لي في ليلة المعركة. كان يقول بحزن شديد:

لا أحد يعرف متى بالضبط ظهر الشابان. كانا بنفس العمر، والطول، وكانا متشابهين مثل توأمين. ظن أهالي الحي أنهما من تلك الأحياء الغنية البعيدة، لكنهم لم يحزروا إلى أين كانا يذهبان. كل منهما حمل حقيبة ظهر، وكانا يرتديان ملابس أنيقة تنم عن ثراء مهذب. وأشد ما لفت انتباه أهالي الحي فيهما الشعر الأشقر والبشرة البيضاء. كان حي الظلمة من أشد أحياء المدينة بؤساً. كان سكنته ذوي أجسام هزيلة، وبشرات متفحمة، توارثوها عن أجدادهم الفلاحين. أهالي الأحياء المجاورة هم من أطلقوا أسم الظلمة على الحي الوحيد الذي لم تصله الكهرباء. وكما أظن، كانت هي المرة الأولى التي شاهد فيها أهالي الحي زواراً من هذا الصنف من البشر. كان الشابان يقطعان في كل صباح احد أزقة الحي باتجاه النهر البعيد، قادمين من جهة الأرض الجرداء التي تفصل بين حي الظلمة وحي العربنجية. كانا يبتسمان لأطفال الحي نصف العراة بمودة وحنان، ويحييان الكبار بهزة خفيفة من الرأس تنم عن الإحترام. كانا يتجنبان برك الوحل المنتشرة في الأزقة بتواضع وبساطة. لم يبديا تقززاً ولا تكبراً. وقد اعتبرهما أهالي الحي ملاكين هابطين من السماء. لم يكلمها أحد أو يسألهما أي سؤال محرج، أو يعترض طريقهما، أياً كان السبب. كان الحي مبهوراً بهالة النور التي كانت تشعّ من الشابين. كانا يسيران بخطوات متزنة، واثقة، كأنهما تعلما المشي في مدرسة خاصة. وضاعف صمتهما من غموض إنسانيتهما. كانا في غاية الأدب، وقورين، تلفهما مسحة خفيفة من المرح. أحب أهالي الحي الشابين. واعتاد الناس على طلعتهما الصباحية البهية. ويوماً بعد يوم ازداد تعلق الناس بهذين الشابين الوسيمين، وأصبح قدومهما وذهابهما مثل طلوع الشمس وغروبها. كان الأطفال أول من تعلق بهما. كانوا يتجمعون في ساعة مبكرة من الصباح في أطراف الحي، منتظرين ظهور الشابين من تلك الأرض الجرداء. كانوا يتراهنون بصور السندباد على أي زقاق سيقطعه الشابان اليوم. وحين يصل (الأشقران) تدب السعادة في قلوبهم. كانوا يرافقونهما حتى عبورهما إلى الجهة الأخرى من الحي. يتقافزون حولهما، ويضحكون ويمسون بأطراف أصابعهم بوجل وفرح ملابس الشابين. كانت سعادة الأطفال تتضاعف حين ينحني الشابان برشاقة من دون أن يتوقفا عن المشي، كي يمس الأطفال شعرهما الأشقر. وتعلقت فتيات الحي ب(الشقر). بدأت الحالة كأن عقداً مقدساً وسرياً أبرم بينهما والأهالي.

توالت الأيام من دون أن يجرؤ الطرفان على كسر حاجز الصمت أو الغموض . قبل ظهور الشقر، كان دخول غريب إلى الحي يعني انتحاراً. كانت الفتيات يطللن برؤوسهن من الشرفات والنوافذ، ليملأن عيونهن بوسامة الشابين، مع زفرات حارة كانت تطلقها صدورهن الملتهبة، بالعشق والصبا. وما أن يختفيا حتى تتيه الفتيات في أحلام اليقظة، وهن يستمعن لأغاني العشق من الراديو. فتيات كن يخرجن الراديو إلى الشرفات عند قدوم (الشقر)، فعسى أن تبث حينها الإذاعة أغنية حب. وحيت

تصدح أغنية حب تقوم الفتيات برفع صوت المذياع إلى آخره، كأن الأغنية هي رسالة حب شخصية من صاحبة المذياع. وكان الشابان يقابلان كل ذلك بالمزيد من الاحترام، والتواضع، والمودة.

ومرت الأيام ــ كان جدي يطلق حسرة عميقة وهو يمد حرف الألف في كلمة الأيام ــ

ماتت عجوز، يقول جدي. وولد خمسون طفلاً في الحي من أمهات هزيلات وآباء عاطلين عن العمل. ومر الصيف وتحسنت أحوال بائعي الخضر. وأرجعت نساء الحي زيادة أجور أزواجهن الذين كانوا يعملون في كنس الشوارع، وحراسة المدارس، وسط المدينة، إلى بركة (الشقر). ثم سرعان ما كف الأزواج المشككون ببركة الشابين عن الهزء، حين قررت الحكومة إدخال الكهرباء في مطلع الشتاء. أثر كل هذه البركات، قامت النساء بحملة لزراعة الزهور أمام أبواب بيوتهن، كي يتعطر الشقر أثناء مروهما المبارك بحي الظلمة. أما الرجال فردموا البرك الصغيرة كي لا تعيق مرور الشابين. وكانت هناك بارقة أمل على الوجوه أظهرت سمرتها النقية التي كان يغطيها سخام الحزن والبؤس. وأخذ الكل بعتنون بنظافة الأطفال، وخاطوا لهم ملابس جديدة ، كما أمروهم أن يكونوا أكثر أدباً عند استقبال الشقر، وعلموهم أغنية لطيفة عن الطيور والربيع ينشدونها أثناء مرافقتهم الشقر. وما عزز كل هذا التقديس والأيمان تسلم مفاجئ لرجل من الحي أحد المناصب الحكومية المهمة. ووعد بتبليط الشوارع ومد أنابيب ماء الشرب. أما الشباب فقالوا للرجل بأن يطالب الحكومة بإيصال خطوط الهاتف إلى حي الظلمة. كما أذكر ما فعله الأهالي حين عرفوا بان جماعة من الأشرار تنوي الاعتداء على الشقر قرب النهر. تباحثوا في بيت المختار ثم أنذروا الأشرار بطردهم مع عائلاتهم من الحي إذا اعتدوا على الشقر. وهكذا تراجع الأشرار.

بعد عامين لا أكثر من ظهور الشقر، تحققت جميع الأماني، مثلما تتحقق المعجزات في الأساطير والحكايات:

تزوجت العوانس، وتم تعبيد الأزقة الموحلة، وشفي كثير من الناس من أمراض مستعصية، ونجح أكثر الأولاد في امتحانات المدرسة، وقبلها كانت نتائجهم فيها تدعو إلى الخجل . أما المعجزة الكبرى ، فكانت سقوط الملكية بانقلاب قام به ضباط أبطال حظوا بتأييد الشعب. ومن الواضح أن كل هذا الخير و البهجة جاءا إلى أهالي حي الظلمة، بفضل الشقر. منذ ذلك اليوم ساد الوئام والمحبة بين سكان الحي، وعلى وجه التقريب اختفت العداوة و العنف. والجديد أيضاً أن المدارس صارت مختلطة – للبنين و البنات. كما شيدت الحكومة مستوصفاً قريباً من حي الظلمة، صرت أبيع اللبلبي الحار أمامه. وقامت الحكومة بعمل منطقي جداً حين غيّرت الاسم من (حي الظلمة) إلى (حي الزهور). واختارت هذا الاسم بعد أن رفع مندوبها، الذي زار الحي تقريراً، ذكر فيه كثرة الزهور، ونظافة الحي أيضاً. ودخل الهاتف إلى كل البيوت تقريباً، كما لوحظ أن عدداً ليس بالقليل من السكان صار يملك

سيارة. الجديد الآخر في الحي، أن المسنين يشاركون الآن في حملة محو الأمية، فها هم يواظبون على الدرس، وكشف أسرار الأبجدية، واللغة عموماً. باختصار، أخذت العافية تدب في جسم الحي بعد أن سرى الدواء فيه. لكن السعادة تبخرت في ذاك الصباح المشوؤم حين خرج الأطفال إلى أطراف الحي منتظرين قدوم الأشقرين، صباح الانقلاب العسكري الثاني. طال انتظار الأطفال ولم يقدم الشقر. لحقت بهم الأمهات وجلسن معهم على تلك الأرض الجرداء التي شقت الحكومة وسطها شارعاً عريضاً قطعته في ذلك الصباح الدبابات والسيارات المحملة بالجنود. بعدها جاءهم الباقون من أهالي الحي. وأخذ الكل ينظرون إلى الدبابات في الطريق العام، وهي تنفث دخاناً أسود. وكانت في القلوب مرارة وفي الحناجر غصة، وفي العيون دموع ساخنة...

وقبل أن ينفخ جدي لهب الفانوس ويطلق حسرته الطويلة كان يقول:

غابت الشمس، وحل الظلام من جديد ...

بعد منتصف الليل كانت دبابات الحكومة الجديدة تقتحم الحي لإزالة منصة تمثالي الأشقرين بالقوة. وكان شبان ورجال الحي يتخذون من سطوح المنازل والأزقة مواقع قتالية. نشبت معركة طاحنة شاركت فيها حتى النساء. كنت قد تسللت مع ثلاثة أصدقاء من حاملي القاذفات لتدمير دبابة كانت تتحرك وسط الشارع العام. لكن قصف المروحيات أعاق تحركاتنا. اختبأنا خلف سيارة أجرة متوقفة فوق الرصيف. ثم اشتعلت النار في بعض المباني والدكاكين. وبدا أننا سنخسر المعركة لا محالة بسبب قصف المروحيات المتواصل. كسرنا زجاج نافذة التاكسي، واختبأنا في الداخل، وكان في نيتنا أن نقود السيارة ونفر، عندما اشتعلت فجأة أحدى المروحيات في السماء، وهوت فوق سطوح البيوت. ثم أصابت قذائف مقاتلينا دبابة، وشاهدنا جنود الحكومة ينسحبون بذعر. بعد قليل شاهدنا مجموعة من شبان الحي وهم يندفعون كالمجانين، ويكبرون باسم الله، وهم يزخون الرصاص بطريقة عشوائية، فرحين وغير مكترثين للمعركة.

ترجلنا من سيارة التاكسي حين مر الشبان من قربنا، وفهمنا منهم أن الله قد حقق المعجزة. لقد أخبرنا الشبان أن الشقر قد عادوا إلى الحي وهما الآن يقاتلان بشراسة قوات الحكومة، وإن من أحرق الدبابات وأسقط المروحية هم الشقر لا غيرهما. كبر وهتف رفيقاي مع المجموعة، وهم يعدون باتجاه جنود الحكومة، ويرشقون الرصاص في كل اتجاه. أكيد أن هذا الحي هو مجرد مصحّ عقلي كبير. كنت أشعر بالغضب والكراهية، وأنا أتسمر قرب التاكسي، وأراقب الجموع وهي تحتفل بنصر المعجزة.

أشعلت سيجارة، وفكرت أن هجر هذا الكهف الذي يسمى حي الظلمة، هو الحل الأمثل لنهاية عذابي. وما أن استدرت خطوة للعودة إلى البيت، حتى سقط فجأة سيل من القذائف فوق أماكن عديدة من الحي. واحدة من هذه القذائف ألقت بي وبحطام التاكسي إلى الجدار القريب. كنت أرى لهب النار يحيط بي من جميع الجهات. لم أكن اشعر بالألم، وكان اختفاء الأصوات من حولي يشعرني بنوع غريب من السلام . لكن حين سحبني الشقر من أسفل حطام السيارة، شاهدت قميص أحدهما يتلطخ بدمي. كان أبي يقول أنني كنت فاقداً للوعي حين عثروا علي أمام باب البيت. لكنني متأكد من أن الشقر حملاني في نقالة إسعاف بيضاء اللون، وكانا طوال الطريق يبتسمان لي، وكنت أمد يدي لملامسة شعرهما الأشقر الجميل.

بعض الشبان من الجيل الجديد في الحي يسمونني اليوم بمجنون ساحة الحرية. قامت الحكومة بزرع بعض الأشجار ووضع المصاطب في مكان تمثال الشقر، وثبتوا لوحة كبيرة كتب عليها أسم الحي الجديد: حي الحرية. أعرف ما يقوله هؤلاء الحمقى، يدعون أن الشظية التي دخلت في رأسي قد أتلفت عقلي. لكنهم مجرد قرويين مازالوا يعيشون في عصور الظلام. لقد طالبت مراراً وجهاء الحي والأهالي بالتبرع بالأموال من أجل بناء تمثال الشقر، من جديد، والدفاع عن تاريخ الحي. وهذا أقل شيء يمكنني فعله، لرد جميل إنقاذهما لحياتي. ما يثير غضبي أنه حتى أبي لم يعد يؤمن بحكاية الشقر بعد أن حطم الجنود التمثال، وقتلوا العديد من الشبان في تلك الليلة. يدعي الأهالي اليوم أن معجزة ظهور الشقر في تلك الليلة، وقتالهما معنا هو مجرد دعاية رخيصة، أطلقها بعض الشبان لرفع معنويات المقاتلين من الأهالي. وأن جيش الحكومة قضى على المقاومة حتى قبل بزوغ الصباح. لكنني على يقين تام من أن الشقر، هما من حملاني على نقالة الإسعاف البيضاء، وبأصابعي هذه، مسست شعرهما الملائكي.

التقيت قبل أيام برجل غريب، أظنه رجلاً صادقاً، وغير مزيف، مثل أغلب أهالي الحي. جلس قربي على المصطبة في ساحة الحرية. وأخبرني أنه يصدق حكايتي عن ظهور الشقر في تلك الليلة. تحدث لي طويلاً عن ضياع تاريخنا وتراثنا بسبب عملاء الغرب ونسياننا لديننا. وأن الحرية الحقيقة هي أن لا نتحول إلى مسوخ في يد الكفرة. لكن ما لا أفهمه جيداً هو الحزام الواسع الذي لفه الرجل حول خصري صباح هذا اليوم في بيته. أشعر بالحر الشديد بسبب ثقل الحزام. سأجلس أسفل ظل الشجرة... اللعنة .. الأطفال والنساء يحتلون جميع المصاطب ...

كوابيس كارلوس فوينتس

في العراق كان أسمه سليم عبد الحسين، وكان يعمل في البلدية في أعمال التنظيف ضمن المجموعة التي خصصها مدير بلدية العاصمة لتنظيف مخلفات الانفجارات. مات في هولندا في العام 2009، باسم آخر: كارلوس فوينتس.

كان سليم يكنس بملل وقرف، مثل كل يوم أسود، هو وزملاءه، سوقاً شعبياً انفجرت قربه شاحنة بنزين مفخخة. في السوق احترق الدجاج والخضروات والفواكه والبشر. كانوا يكنسون السوق بحذر وبطء. كانوا يخشون أن يجرفوا مع الأنقاض ما تبقى من أشلاء البشر. لكنهم كانوا يبحثون دائماً على حافظة نقود سالمة، أو ربما سلسة ذهبية، أو خاتم، أو ساعة لم تتوقف عن حساب الزمن. سليم لم يكن محظوظاً مثل زملائه في الحصول على مخلفات ثمينة للموت. كان بحاجة للنقود لشراء فيزا سفر إلى هولندا، والخلاص من جهنم الموت والنار. اللقيةُ الوحيدةُ التي عثر عليها كانت أصبع رجل يحمل خاتماً فضياً ثميناً وبالغ الجمال. وضع سليم حذائه فوق الأصبع، انحنى بحذر، وسحب بتقزز خاتم الفضة. ثم حمل الأصبع، ووضعه في كيس أسود، كانوا يجمعون فيه بقايا الأشلاء. الخاتم صار في أصبع سليم. وكان يتأمل شذرة الخاتم بدهشة وإعجاب، وفي الأخير تخلى عن فكرة بيعه. هل يمكن القول إنه كان يشعر بعلاقة روحية سرية مع الخاتم؟

*

أثناء تقديمه طلب اللجوء في هولندا تقدم أيضاً بطلب تغيير أسمه: من سليم عبد الحسين إلى كارلوس فوينتس. وكان قد برر للمحقق في دائرة الهجرة طلبه بسبب خشيته من الجماعات الإسلامية المتطرفة. فحكاية طلب لجوئه كانت تتعلق بعمله مترجماً لدى الجيش الأمريكي، وخوفه من الاغتيال بسبب تهمة خيانة الوطن. كان سليم قد أستشار ابن خاله الذي يعيش في فرنسا، حول تغيير أسمه. إتصل به عبر الهاتف الخلوي من دائرة الهجرة، فسليم لم تكن لديه فكرة واضحة عن اسم أجنبي جديد يناسبه. كان

ابن الخال، يسحب في شقته، نفساً عميقاً من سيجارة الحشيش حين اتصل به سليم. قال ابن الخال وهو يكتم ضحكة: (اسمع .. أنت محق تماماً، أن تكون من السنغال، أو من الصين، أفضل مئة مرة من أن تحمل في أوربا اسماً عربياً. لكن ليس من المعقول أن يكون اسمك جاك أو ستيفن ... أقصد اسماً أوربياً .. ربما تختار أسماً لأسمر...من كوبا أو الأرجنتين، يتناسب مع لون بشرتك الداكن، مثل رغيف الشعير المطبوخ...ها ها ها ها) . كان ابن الخال يبحث في كومة الصحف في غرفة المطبخ، وهو يواصل حديثه عبر الهاتف، فقد تذكر أنه قد قرأ قبل يومين أحد الأسماء، ربما كان أسماً اسبانياً في مقال أدبي لم يفهم منه الكثير. شكر سليم ابن خاله بحرارة على الخدمة التي قدمها له، وتمنى له حياة سعيدة في فرنسا العظيمة.

كان كارلوس فوينتس سعيداً جداً باسمه الجديد. أسعده جمال مدينة أمستردام أيضاً. لم يضع فوينتس الوقت. انخرط في كورس تعلم اللغة الهولندية، وقد قطع على نفسه عهداً بأن لا يتحدث بالعربية بعد اليوم، وأن لا يختلط بالعرب، ولا بالعراقيين، مهما كانت ظروف حياته، قال بصوت مسموع:

(كفى بؤساً، وتخلفاً، وموتاً، وخراءً، وبولاً، وبعرانا).

في العام الأول من حياته الجديدة لم يترك فوينتس شيئاً لم يقارنه بأحوال بلده الأول، أو أن يضع أمامه علامة استفهام أو تعجب. كان يسير في الشوارع، وهو يتمتم مع نفسه بتذمر وحسد:

-انظر إلى الشوارع كم هي نظيفة! انظر إلى مقعد المرحاض، يلمع من النظافة! لماذا لا نأكل الطعام مثلهم. نأكل نحن بنهم، وكأن الطعام سيختفي سريعا! لو كانت هذه الفتاة التي ترتدي تنورة قصيرة وتكشف عن ساقيها ــ تسير الآن في ساحة باب الشرقي، لاختفت عن هذا العالم! يكفي أن تسير عشرة أمتار قبل أن تبتلعها الأرض. لماذا الأشجار خضراء جميلة كأنها مغسولة بالماء كل يوم! لماذا لا نصبح مسالمين مثلهم! نعيش في بيوت كالزرائب بينما بيوتهم، دافئة، آمنة، ملونة! لم يحترمون الكلاب مثل البشر! لماذا نمارس العادة السرية أربع وعشرين ساعة! من أين نأتي بحكومة محترمة مثلهم!

لم يترك كارلوس فوينتس شيئاً، لم يشعر تجاهه بالدهشة والمهانة في الوقت نفسه. من نعومة ورق التواليت في هولندا، إلى بناية البرلمان التي لا تحرسها سوى كاميرات المراقبة!

سارت حياة كارلوس فوينتس مثلما خطط لها، وكان يتقدم كل يوم في عملية دفن هويته وماضيه. وكان يسخر طوال الوقت من المهاجرين والأجانب الآخرين الذي لا يحترمون قوانين الحياة الهولندية ويتذمرون طوال الوقت. كان يصفهم بالجرابيع المتخلفة. يعملون في المطاعم بطرق غير قانونية، لا يدفعون الضرائب، ولا يحترمون أي قانون. همج من العصر الحجري. يكرهون الهولنديين الذين

منحوهم خبزهم وبيوتهم. كان يشعر بأنه الوحيد الذي يستحق أن يتبناه هذا البلد الرحيم والمتسامح، وأن على الحكومة الهولندية أن تطرد كل من لا يتعلم اللغة بشكل جيد، وكل شخص يرتكب أبسط مخالفة، حتى لو كانت تتعلق بعبور الشارع بصورة مخالفة لنظام المرور. وليذهبوا ويتغوطوا هناك في بلدانهم المراحيض...

كان كارلوس فوينتس يعمل باستمرار ويدفع الضرائب، ويأبى أن يعيش على المساعدات الاجتماعية، لقد أجاد اللغة الهولندية بفترة زمنية قياسية، أدهشت كل من يعرفه. وتوجت جهود فوينتس في دمج روحه وعقله بالمجتمع الهولندي بالحصول على صديقة هولندية طيبة القلب، أحبت فوينتس واحترمته. كان وزنها 90 كيلو، ولها ملامح طفولية، تشبه ملامح رسوم الأطفال المتحركة. وكان فوينتس يجهد في معاملتها كرجل متفهم، ومتحرر مثل الرجل الغربي، بل أكثر قليلاً. بالطبع كان يقدم نفسه دوماً للآخرين على أنه مكسيكي الأصل، هاجر والده واستقر في العراق للعمل كمهندس في شركات النفط. وكان يحلو لكارلوس أن يصف الشعب العراقي بأنه شعب همجي، متخلف، لا يعرف ما معنى الإنسانية:

(أنهم مجرد عشائر متوحشة).

و أتاح له زواجه من الهولندية، وإجادته اللغة، وانخراطه في دورات عديدة عن الثقافة والتاريخ الهولندي، وعمله المتواصل، وخلو ملفه من أي مشكلة، أو مخالفة قانونية، أن يحصل على الجنسية الهولندية بوقت قصير جداً، لم يحلم أي واحد من المهاجرين به. و قرر كارلوس فوينتس أن يحتفل كل عام بيوم حصوله على الجنسية الهولندية. كان فوينتس يشعر أن جلده ودمه، قد تبدلا إلى الأبد، و رئتاه تتنفسان الحياة الحقيقية. ولكي يشد من عزيمته كان يردد دائماً:

-أجل، أعطني بلداً يحترمني، لأعبده طوال حياتي وأصلي من أجله.

هكذا كان الحال إلى أن ظهرت مشكلة الأحلام الليلية ولخبطت كل الأمور. أو كما يقال لا تصدأ الأمثلة والحكم القديمة أبداً، ما يصدأ فقط هو الإنسان. لهذا جرت الرياح بما لا تشتهيه سفينة فوينتس. كان أول الأحلام قاسياً وصادماً. فأثناء الحلم عجز عن الكلام بالهولندية. كان يقف أمام صاحب العمل الهولندي ويتحدث معه بلهجة عراقية، مما سبب ضيقاً وألماً فظيعا في رأسه. وكان يفيق وهو يتصبب عرقاً ثم ينفجر بالبكاء. أول الأمر ظن أنها مجرد أحلام عابرة ستزول حتماً. لكن الأحلام كانت تواصل القصف من دون رحمة. شاهد في أحلامه مجموعة من الأطفال في الحي الشعبي الذي ولد فيه، وهم يركضون خلفه، ويسخرون من اسمه الجديد. كانوا ينادون خلفه ويصفقون: كارلوس الجبان .. كارلوس المنيوك .. كارلوس الزعطوط.

وكانت الأحلام المزعجة تتحول ليلة بعد ليلة إلى كوابيس مرعبة. حلم ذات ليلة بأنه يفجر سيارة وسط مدينة أمستردام. كان واقفاً في قاعة المحكمة وهو يشعر بالعار والخجل. كان القضاة صارمين لم يسمحوا له بالتحدث بالهولندية. كان قصدهم إهانته وتحقيره. جلبوا له مترجماً عراقياً طلب منه أن لا يتكلم بلهجته القروية التي لا يفهمها، وكل هذا كان يزيد من عذابه وحرجه.

راح فوينتس يجلس ساعات في المكتبة يبحث في الكتب التي تتحدث عن الأحلام . عثر في زيارته الأولى على كتاب بعنوان اللغة المنسية لكاتب اسمه أريك فروم. لم يفهم الكثير منه، كما لم تعجبه آراء الكاتب التي كانت غير مفهومة تماما . فهو لم يكمل حتى دراسته الإعدادية. هذا محض هراء. قال فوينتس وهو يقرأ كتاب فروم: ***نحن نكون أحراراً خلال النوم، بل أكثر حرية مما نكون عليه خلال اليقظة... بل قد نشبه الملائكة من حيث عدم خضوعنا لقوانين الواقع. خلال النوم يتراجع ملكوت الضرورة ويخلي مكانه لملكوت الحرية وتغدو كينونة ال ــ أنا ــ مرجعية الأفكار والمشاعر الوحيدة.***

أعاد فوينتس الكتاب وهو يشعر بالصداع. كيف نكون أحراراً ونحن لا نتحكم بأحلامنا؟ ما هذا الكلام الفارغ! سأل فوينتس موظفة المكتبة إذا كانت هناك كتب بسيطة تتحدث عن الأحلام. لم تفهم الموظفة سؤاله بالتحديد، أو أنها أرادت أن تعبر له عن مدى ثقافتها واطلاعها على هذا الموضوع. أخبرته عن كتاب يتحدث عن علاقة الطعام وطرق النوم بالأحلام، وراحت تفيده ببعض المعلومات وتسدي له بضع نصائح ، كما دلته على مكتبة لديها مجلات مختصة بعالم الأحلام وأسراره.

كانت زوجة فوينتس قد انتبهت إلى سلوك زوجها الغريب وعاداته في الطعام والنوم، كما تغيرت أوقات دخوله إلى الحمام وخروجه. مثلاً لم يعد فوينتس يأكل البطاطا التي كان يفضل كل أنواع طهيها. وكان يشتري باستمرار لحوم الطيور، والتي كانت أسعارها في الغالب مرتفعة. بالطبع لم تكن زوجة فوينتس تعلم بأنه قرأ أن تناول أي من الخضروات الذي تنمو داخل الأرض تكون في الغالب مصدر الأحلام التي تتعلق بماضي الإنسان وجذوره. فتناول جذور النباتات له مفعول يختلف عن تناول السمك الذي يعيش في الماء أو فواكه الأشجار. كان فونيتس يجلس إلى المائدة وهو يلوك لقمته مثل البعير. فقد قرأ أن مضغ الطعام بشكل جيد يساعد على التخلص من الكوابيس. لكنه لم يقرأ مثلاً عن لحوم الطيور أية معلومة، إلا أنه خمن بأن أكل طيور السماء قد يجلب أحلاماً أكثر سعادة وتحرراً. كان يزاوج بين مخيلته وخبرة الكتب في جميع محاولاته ل (دمج الأحلام). في الأخير توصل إلى هذه الفكرة. فقد صار طموحه أكبر من التخلص من الأحلام المزعجة. يجب التحكم بالأحلام لتشذيبها وتنقيتها من كل الهواء الفاسد ودمجها بقوانين الحياة الهولندية النقية. على الأحلام أن تتعلم اللغة الجديدة للبلد كي تتمكن من تخيل صور وأفكار جديدة. يجب أن تختفي كل الوجوه الكالحة والبائسة القديمة. وهكذا ضاعف فوينتس قراءة الكثير من الكتب والمجلات التي تتحدث عن خبايا النوم والأحلام

بأكثر من أسلوب وفلسفة. كفّ فوينتس أيضاً عن النوم عارياً، والاحتكاك بعري زوجته. وكان يرتدي أثناء النوم معطفاً سميكاً من الصوف كان سبب الشجار مع زوجته وذهابه إلى الصالة والنوم على الكنبة. العري يسحب النائم إلى منطقة الطفولة، هذا ما قرأه أيضاً. وكان يذهب للاستحمام كل يوم في تمام الساعة الثانية عشرة وخمس دقائق، وحين يخرج من الحمام يجلس إلى الطاولة في المطبخ ليتناول بضع قطرات من زيت زهور الياسمين. وقبل أن يخلد إلى النوم كان يدون في ورقة، أهم الأغذية المهدئة التي سيشتريها في الغد. دامت الحال أكثر من شهر لكن فوينتس لم يصل إلى نتيجة طيبة. لقد كان صبوراً وذا إرادة لا تقهر، إلى أن أتت أيام راح يقوم فيها بطقوس سرية غامضة. كان يصبغ شعره وأظافر أصابع قدميه بالأخضر، وينام على بطنه، وهو يردد كلمات مبهمة. وفي إحدى الليالي صبغ وجهه مثل الهنود الحمر، ونام وهو يرتدي بيجامة شفافة، لونها برتقالي، ويضع تحت وسادته ثلاث ريشات منزوعة من طيور مختلفة.

لم تكن كرامة فوينتس تسمح له بأن يطلع زوجته عما كان يحدث له. فقد وجد أنها مشكلته، وقادر على تجاوزها، فهو من تجاوز من قبل أصعب الظروف وأتعسها. بالمقابل كانت زوجته أكثر صبراً على سلوكه الغرائبي. فهي لم تنس طيبته وكرمه. قررت أن تمنحه فرصة أخرى قبل أن تتدخل وتضع حداً لما يجري. في ليلة من ليالي الصيف الجميلة كان كارلوس فوينتس نائماً وهو يرتدي بدلة عسكرية ويضع إلى جانبه بندقية من البلاستيك، من تلك التي يلعب بها الأطفال. وما أن تحول نومه إلى حلم، حتى تحققت للمرة الأولى إحدى أمنياته التي طالما انتظرها. لقد أدرك في الحلم أنه يحلم. هذا ما كان يبحث عنه بالضبط. أن يعمل وعيه داخل الحلم لكنس كل زبالة اللاوعي. وقف في الحلم أمام باب بناية قديمة تبدو وكأنها قد تعرضت في حياتها السابقة لحريق مدمر. وكانت البناية تقع وسط بغداد. وما كان يزعجه رؤيته الأشياء من خلال منظار البندقية التي يحملها بين يديه. اقتحم فوينتس باب البناية وراح يدخل شقةً، تلو أخرى، ويجهز على كل من فيها من دون رحمة. لم ينج من زخّات رصاصه حتى الأطفال. كان هناك صراخ وهلع وفوضى. لكنه كان بارد الأعصاب، وحصد ضحاياه بكل براعة ودقة. خشي أن يفيق قبل أن ينهي مهمته. وفكر: لو كانت عندي رمانات يدوية، لأنهيت العمل بأقصى سرعة في هذه البناية، والتوجه إلى مكان آخر. لكن حدثت مفاجأة صاعقة في الطابق السادس حين اقتحم أولى شققه، ووجد نفسه أمام سليم عبد الحسين! كان سليم يقف قرب النافذة عارياً، وهو يحمل مكنسة ملطخة بالدم. وبيد مرتجفة صوب فوينتس باتجاه رأس سليم الذي أخذ يبتسم، ويردد هازئاً:

–سليم الهولندي، سليم المكسيكي، سليم العراقي، سليم الفرنسي، سليم الهندي، سليم الباكستاني، سليم النيجيري.

انهارت أعصاب فوينتس وتضاعف ذعره. أطلق صرخة مدوية وبدأ يزخ الرصاص على سليم عبد الحسين ،إلا أن هذا قفز من النافذة ولم تنله رصاصة واحدة.

حين أفاقت زوجة فوينتس على أثر الصرخة، وأطلت برأسها من النافذة، كان كارلوس فوينتس ميتاً على الرصيف وبركة دم تكبر ببطء تحت رأسه. ربما سيغفر فوينتس للصحف الهولندية التي كتبت: (انتحار رجل عراقي ليلاً من الطابق السادس)، بدل من أن تكتب (انتحار مواطن هولندي). لكن فوينتس لن يغفر مطلقاً لأخوته الذين أعادوه إلى العراق ودفنوه في مقبرة النجف .غير أن أجمل ما في حكاية فوينتس صورته التي التقطها له أحد هواة التصوير الذي كان يعيش قريباً من مكان الحادث. ألتقط الشاب الصورة من زاوية منخفضة. كانت الجثة قد غطتها الشرطة، ولم يكن يبرز من أسفل الغطاء الأزرق سوى كف يده اليمنى. كانت الصورة بالأسود والأبيض إلا أن فص الخاتم في أصبع كارلوس فوينتس كان يشع باللون الأحمر في مقدمة كادر الصورة، وكأنه شمس في جهنم.

معرض الجثث

قال لي قبل أن يخرج السكين: بعد دراسة ملف الزبون تكون ملزماً بتقديم نبذة مختصرة عن الطريقة المقترحة التي ستقتل فيها زبونك الأول وطريقة إشهار جثته في المدينة. لكن هذا لا يعني الموافقة على ما ستطرحه في تلك النبذة. سيقوم أحد المختصين بدراسة الطريقة المقترحة لإقرارها، أو اقتراح طريقة أخرى. هذا النظام يطبق على المحترفين أيضاً في كل مراحل عملهم. أريد أن أقول بأن هذا النظام سيبقى سارياً حتى بعد انتهاء مرحلة التدريب والاختبار التي تمر بها. لا تقلق، ففي كل الأحوال ستتلقى أجورك كاملة. لا أريد أن أخوض في جميع التفاصيل الآن. سأطلعك على الأمور بصورة تدريجية. بعد أن تستلم ملف الزبون لا تستطيع طرح الأسئلة بصورة مباشرة كما في السابق، عليك أن تقدم أسئلتك مكتوبة. جميع الأسئلة، واقتراحاتك، ونصوصك ستوثق في ملف خاص بك. لا يمكنك مطلقاً أن تكتب لي عن أمور العمل على بريدي الالكتروني، أو أن تهاتفني. ستكتب أسئلتك على ورق خاص سأقوم بتزويدك به لاحقاً. المهم أن تتفرغ الآن لدراسة ملف الزبون بدقة وصبر. أرجو أن تطمئن أننا لن نتخلى عن التعامل معك حتى إن فشلت في مهمتك الأولى. ستنتقل في حالة الفشل إلى العمل في قسم آخر وبنفس الأجور. لكن علي أن أذكرك مرة أخرى، لن تكون موفقة ومقبولة فكرة التخلي عن العمل بعد أول أجر تستلمه. لهذه الحالة شروط صارمة، وفي حالة موافقة الإدارة على فك الارتباط معك، ستخضع لاختبارات عديدة قد تستغرق وقتاً طويلاً. لدينا في الأرشيف ملفات نحتفظ بها كنماذج من المتعاونين، والعملاء الآخرين، من الذين قرروا إنهاء عقودهم بإرادتهم. في حالة تفكيرك بالأمر سنقدم لك إحدى هذه النماذج للاطلاع على تجارب الآخرين. أنا على ثقة من قدرتك على مواصلة العمل والاستمتاع فيه. وسترى كيف ستتغير حياتك كلها. تفضل، هذه هي الهدية الأولى، لا تفتحها الآن. أنه أجرك كاملاً. أما الأفلام الوثائقية عن حياة الحيوانات المفترسة يمكنك أن تشتريها وسندفع لك لاحقاً ثمنها. حاول أن تراقب نظرة بقايا عظام الفريسة. تذكر دوماً يا عزيزي أننا لسنا إرهابيين هدفهم إيقاع أكبر عدد من الضحايا لتخويف الآخرين، ولا حتى سفاحين مجانين، نعمل من أجل المال. لا علاقة لنا بالجماعات الإسلامية المتطرفة، ولا بمخابرات دولة مشبوهة، ولا بكل هذه

الهلوسات. أنا أعرف أن هناك أسئلة تدور الآن في ذهنك. لكنك ستكتشف تدريجياً أن العالم مشيد من أكثر من طابق، وليس من المنطق أن يصل الجميع إلى كل الطوابق، والسرداب بسهولة. لا تنس المناصب الرفيعة التي تنتظرك داخل نظام المؤسسة، إذا امتلكت مخيلة طازجة، شرسة، صادمة. كل جثة تنجزها هي عمل فني ينتظر منك اللمسة الأخيرة، ولتبزغ مثل جوهرة ثمينة وسط حطام هذا البلد. إشهار الجثة أمام الآخرين هو ذروة الإبداع الذي نبحث عنه، ونحاول دراسته والإفادة منه. أنا لا أطيق شخصياً العملاء ذوي المخيلة المجدبة. لدينا مثلا عميل أسمه الحركي ــ سكين إبليس ــ أتمنى أن يتخلص المسؤولون منه بأسرع وقت. فهذا يظن أن تقطيع أوصال الزبون، وتعليقه على أسلاك الكهرباء في الأحياء الشعبية، هو نهاية الإبداع والابتكار. إنه مجرد مغرور أحمق. أكره طرقه الكلاسيكية. رغم أنه يتحدث عن كلاسيكية جديدة. كل ما يفعله هذا الأرعن هو أنه يصبغ أشلاء الزبون بالألوان ويعلقها بخيوط شفافة. القلب بالأزرق الداكن، المعدة بالأخضر، الكبد والخصيتين بالأصفر. هكذا من دون فهم شعرية البساطة. أنا أحدثك بشيء من التفصيل، ففي عينيك أرى تلك النظرة الحائرة. اهدأ، تنفس بعمق، وأصغ إلى إيقاع روحك السرية بهدوء وصبر. دعني أوضح لك بعض النقاط بطريقة أفضل، فربما تساعدك على التخلص من الأوهام التي تدور في ذهنك. ولأضيع بعض الوقت معك. ما سأقوله قد يكون مجرد انطباعات شخصية، ولربما لعضو آخر في الجماعة رأي مغاير تماماً.

في الواقع أنا أحب الإيجاز والبساطة والصورة الصادمة. خذ مثلاً العميل ــ الأصم ــ .انه هادئ وله عين ذكية صافية. وأكثر أعماله الفنية القريبة من قلبي هي تلك المرأة المرضعة. في صباح شتائي ممطر. كان جمع من المارة وسواق السيارات ينظرون إلى تلك المرأة العارية البدينة، وهي ترضع من ثديها الأيسر طفلها العاري أيضاً. وضع المرأة أسفل نخلة ميتة في الجزرة الوسطية لشارع مزدحم. لم يكن هناك أي أثر لجرح أو رصاصة، لا في جسد المرأة، ولا في جسد الطفل. كانت تبدو كأنها حية هي وطفلها تماماً، مثل جدول ماء صاف. إنها العبقرية التي نفتقدها في هذا القرن. كان عليك أن ترى ثديي المرأة الضخمتين، ونحول الطفل الذي يبدو كأنه كومة من العظام مطلية بجلد طفولي فاقع البياض. عجز الكل عن معرفة الطريقة التي قتلت بها المرأة وطفلها. أغلبهم تكمن باستخدام سم سري لم يصنف بعد. لكن عليك أن تقرأ فقط في أرشيف مكتبتنا تلك النبذة المختصرة الشاعرية التي كتبها ــ الأصم ــ عن عمله الفني الرائع هذا. هو الآن يحتل منصباً مهماً في مؤسسة الجماعة. إنه يستحق أكثر من ذلك بكثير. عليك أن تفهم جيداً أن هذه البلاد هي فرصة ثمينة أخرى من فرص هذا القرن. ربما لن يدوم عملنا طويلاً. فما أن تستقر أحوال هذا البلد سنغادر مرغمين إلى بلد آخر. لا تقلق، هناك أماكن عديدة مرشحة للعمل. اسمع ... كانت لدينا دروس كلاسيكية في الماضي نعرضها على الطلاب الجدد من أمثالك. لكن الأمر تغير الآن كثيراً. أصبح الاعتماد على ديمقراطية المخيلة وعفويتها، وليس

التلقين. أنا درست طويلاً، وقرأت الكثير من الكتب المملة التي تبرر ما نقوم به، وقبل أن أتمكن من العمل بطريقة مهنية. كنا ندرس بحوثاً تتحدث عن السلام. دروس مكتوبة ببلاغة مقرفة حقاً. كان هناك الكثير من الأمثلة الساذجة، والتي لا حاجة إليها لتبرير كل شيء. كان أحدهم يكتب عن قضية تتحدث عن أن كل أدوية الصيدلية، بل حتى معجون الأسنان البسيط، قد أنتج بعد التجارب المختبرية على فئران وحيوانات أخرى. إذن لا يمكن تحقيق السلام على هذه الأرض من دون التضحية ببشر المختبرات أيضاً. مثل هذه الدروس القديمة كانت تبعث الملل واليأس. وجيلكم محظوظ للغاية في عصر الفرص الذهبية هذا. ممثلة سينمائية تلعق البوظة قد تجلب عشرات الصور والأخبار التي تصل حتى إلى أبعد قرية تتضور جوعاً، في هذه الأرض، طاحونة الصراخ والرقص. وهذا يحقق على الأقل ما أسميه بعدالة التعرف على تفاهة العالم، وجوهره الملتبس. فما بالك بجثة معروضة بطريقة مبدعة وسط المدينة. ربما تماديت كثيراً في الحديث معك. لكن دعني أصارحك بأني أشفق عليك. فأنت إما أن تكون أحمق أو عبقرياً. وهذا النوع من العملاء يثير فضولي. إن كنت عبقرياً فهذا أمر مسّر. أنا ما زلت أؤمن بالعبقرية، رغم أن أغلب أعضاء الجماعة يتحدث عن التجربة والخبرة. أو إذا كنت أحمق فدعني أروي لك وقبل أن أنصرف، حكاية قصيرة ومفيدة عن أحد الحمقى الذين حاولوا أن يلعبوا معنا بسذاجة. حتى لقبه لم يكن يعجبني. (المسمار) . بعد أن وافقت اللجنة على الطريقة التي اقترحها المسمار لقتل زبونه، وإشهار جثته في مطعم كبير، انتظرنا النتائج. لكن هذا تأخر طويلاً في إنجاز عمله. التقيت به أكثر من مرة، وسألته عن سبب التأخير. كان يقول أنه لا يريد أن يكرر أسلوب من سبقوه. ويفكر بتحقيق طفرة مبدعة جديدة في العمل. لكن الحقيقة كانت غير ذلك. كان المسمار جباناً تسربت إلى داخله مشاعر إنسانية تافهة، وأخذ يتساءل مثل كل مريض عن جدوى قتل الآخرين، وعما إذا كان هناك خالق يراقب كل أعمالنا. وهذا كان يعني بداية الهاوية. فكل طفل يولد في هذا العالم هو مجرد احتمال. أما أن يكون طيباً، أو شريراً، حسب تصنيف مدارس التربية الدينية في هذا العالم الأخرق. لكن الأمر مختلف بالنسبة لنا. كل طفل يولد ما هو إلا زيادة في حمولة المركب الذي هو على وشك الغرق. على كل حال، دعني الآن أحكي لك عما حدث للمسمار الذي سار بنفسه صوب حتفه:

كان له قريب يعمل حارساً في المستشفى وسط المدينة. كان المسمار يفكر في التسلل إلى مشرحة الموتى في المستشفى، واختيار جثة بدل أن يصنع جثته بنفسه. وقد تحقق ذلك له بسهولة بعد أن قدم لقريبه نصف الأجر الذي تلقاه من الجماعة. كانت المشرحة مكتظة بالجثث التي خلفتها تلك الأعمال الإرهابية الساذجة. جثث تمزقت في انفجار سيارات مفخخة، وأخرى قطعت رؤوسها في تصفيات طائفية، وجثث انتفخت في قاع النهر، و أخرى عديدة غبية كانت قد أنجزت بفعل أعمال قتل عشوائية لا تمت بصلة إلى الفن. تسلل المسمار في تلك الليلة إلى مشرحة المستشفى، وراح يبحث عن الجثة

المناسبة لإشهارها أمام الجمهور. كان المسمار يبحث عن جثث الأطفال لأنه قدم في تقريره الأول فكرة عن نهاية طفل في السادسة من عمره.

في المشرحة كانت هناك نماذج من جثث أطفال المدارس التي مزقتها السيارات المفخخة، أو المحترقة في أحد الأسواق الشعبية، أو أشلاء مبعثرة بعد قصف الطائرات للبيوت. أخيراً اختار (المسمار) جثة طفل فصلوا رأسه، مع رؤوس عائلته لأسباب طائفية. كانت الجثة نظيفة وبدت حواف الرقبة كأنها أطراف ورقة ممزقة. فكر (المسمار) في عرض هذه الجثة في مطعم وأن يضع على المائدة عيون أفراد عائلته مقدمة في صحون الدم كحساء. ربما كانت فكرة جميلة. لكن قبل كل شيء كان عمله تزويراً وخيانة. فلو كان قد فصل رأس الطفل بنفسه لجاء ذلك عملاً فنياً أصيلاً. لكن أن يقوم بالسرقة من مشرحة الموتى ويعمل بهذه الطريقة الوقحة، هو عار وجبن في الوقت ذاته. لكنه لم يفقه أن العالم اليوم متصل بعضه ببعض بأكثر من نفق ودهليز. كان مرمم الجثث هو الذي قبض على المسمار، وقبل أن يخدع الجمهور المسكين. كان مرمم الجثث في بداية الستين من عمره. رجل عملاق. ازدهر عمله في المشرحة بعد أن تكاثرت الجثث الممزقة في البلاد. كان الناس يقصدونه كي يرمم جثث أبنائهم وذويهم الذين مزقتهم الانفجارات، والقتل العشوائي. كانوا يدفعون بسخاء لكي يعيد أبناءهم إلى صورهم الأولى التي عرفوهم بها. كان مرمم الجثث فناناً كبيراً حقاً. وكان يعمل بصبر وبحب هائل. اقتاد المسمار في تلك الليلة إلى غرفة جانبية في المشرحة، وأحكم إغلاق الباب. بعد أن حقن المسمار بحقنة مخدرة، تركته مشلولاً عن الحركة من دون أن يفقد وعيه. مدده على طاولة التشريح، وأوثق يديه وساقيه وكمم فمه. وكان يدندن بأغنية أطفال جميلة بصوته النسائي الغريب، وهو يحضر طاولة عمله. أغنية تحدثت عن طفل يصطاد الضفادع في بركة دم صغيرة. وكان من حين إلى آخر يمسد بحنان شعر المسمار ويهمس في أذنه:

أوه عزيزي .. أوه صديقي ... هناك ما هو أغرب من الموت، أن تنظر إلى العالم الذي ينظر إليك، لكن من دون أي إشارة، أو فهم، أو حتى قصد. وكأنك والعالم متحدان بعماوة، مثل الصمت والوحدة. وهناك ما هو أغرب من الموت بقليل: رجل وامرأة يلعبان في السرير، فتأتي أنت لا غيرك. أنت الذي تكتب دوماً قصة حياتك بالخطأ.

وكان مرمم الجثث قد أنهى العمل في ساعة مبكرة من الصباح.

أمام باب وزارة العدل، كانت هناك منصة مثل منصات تماثيل المدينة، مشيدة من عجينة اللحم والعظام. فوق المنصة ينتصب عمود من البرونز، علق عليه جلد المسمار المسلوخ كاملاً ببراعة كبيرة. كان يرفرف مثل علم نصر. وكان يمكنك أن ترى بوضوح في الجزء الأمامي من المنصة

العين اليمنى للمسمار مثبتة في عجينة لحمه. كانت لها نظرة تشبه نظرة عينيك التافهة الآن. هل تعرف من هو المرمم. إنه مسؤول أهم قسم في المؤسسة. إنه مسؤول قسم الحقيقة والإبداع.

ثم طعنني بالسكين في بطني، وقال: أنت ترتجف ..

عادة التعري السيئة

للخوف رائحة أيضاً كما تعرفون ...

كانت تفوح من الرجل رائحة السمك المدخن وهو يروي لي حكايته. شعرت بأنه صادق ونزيه، لكن هدوءه كان يبدو لي غير حقيقي. لا يحالفنا الحظ كثيراً بلقاء من عنده حكاية ممتعة ومثيرة كحكاية هذا الرجل الأصيل. من الأفضل القول (أصيل) بدلا من القول (مجنون). فالأصالة أن تحادث الآخرين رغم كوابيس الرعب والألم. السخرية عن طريق الصمت لغة أصيلة أيضاً لكنها أصالة تحفها بعض المخاطر. فالساخر قد يقفز إلى منصة الغرور أيضاً. بينما تواضع المرعوب الذي يفضي بهواجسه وأسراره، بكل خفة ويسر، هو نقاء وشفافية. لا أقصد المتباكي أو الشاكي. كما أظن أن لمغزى حكاية الرجل صلة بهواجسي من سني الشباب الأولى. وكانت مخيلتي قد قادتني إلى دروب التعري، في حين أن الرجل كان ضحية للعبة الزمن القائمة على ضرب بعض المؤخرات البشرية كما تضرب الكرات المطاطية. في الحقيقة لم أزمع الزهد، ولا الخلاعة في أن أكون عارياً باستمرار. فأنا تعريت في مخيلتي وأبديت الآراء والأفكار، ورسمت صوراً فنية وحياتية مثل من يمارس جنساً لذيذاً. فكل شئ مسموح به: المص، العض، التلوي، الشم، الانقضاض، التشنج، الرعشات، الذوبان، الحر والربيع، الجلد والصفع، الفحيح والزحف، التكبر والإذلال، التأوهات والخرمشة، البلوغ والميوعة، والاختفاء. وكم من مرة قلت إن الحقيقة هي القِدر الذي يغلي في داخلي. أن أجوع أو أمرض. افتح غطاءه وأتقيأ. كنت أتعرى لأغازل ذهني مثل من يدلل امرأة. أتعرى للمواساة. أو لعلي كنت أخلط بين فكرة الصدق والجرأة. أو ربما كنت أتعرى كي تتشتت الذكريات المثقلة بالعداء. علي القول أيضاً إني كنت أتعرى من دون شعور بالذنب أو امتلاك الأمل. أنا أتعرى حراً كي أرفع صليب الحرية. لكنني اليوم أخشى أن يحجب عني هذا النوع من الشعر رغبتي في الهدوء. كلا، ليست في نيتي السكوت. فأنا أخطط لجرائم متخيلة هدفها التسلية لا غير. هي ألعاب دموية صغيرة قد تصلح كدروس إضافية لطلاب المدارس الثانوية مع مادة تأريخ الأحاسيس. أعرف أن القرف بدأ يتسلل إليكم من هذه الهلوسات، فأنتم

هنا من أجل سماع حكاية الرجل. إليكم إذاً حكايته كما رواها لي، وكل عام وأنتم بألف خير وسلام، فاليوم هو عيد الموتى في عدد من البلدان.

كان ذلك في الشتاء الماضي. كنت عائداً من جولاتي الروتينية في وسط المدينة. جولات حرة، الغرض منها "تلقيط الرزق" مثلما نقول في البلاد. كنت أجمع ما يمكن الحصول عليه من بعض البارات المنزوية: حديثاً عابراً، كسّاً، بيرة مجانية، سيجارة ميرهوانا، نقاشاً فوضوياً عن أمور السياسة، شجاراً مع سكير آخر، أو ازعاج الآخرين بحجة السكر من أجل التسلية. المهم أن يمر النهار وفيه لمسة إنسانية مهما كانت صغيرة...أنت تعرف...وفي يوم ظهور الذئب تعرفت على فتاة غريبة ...بوم الشؤم...هل تؤمن بالوجوه المشؤومة...هناك وجوه تلتقيها شبيهة برموز الأحلام الليلية. أنت فنان ومخيلتك تسهل لك فهم ما أعنيه...أليس كذلك...أنتم الفنانون مزارعو حقول الأحلام. هل يعجبك هذا؟ نعم، أنا أؤمن بالأحلام أكثر من إيماني بالله. الأحلام تدخل فيك وترحل ثم تعود بثمار جديدة. أما الله فهو صحراء شاسعة لا غير. تخيل أن رساماً هندياً في مدينة دلهي يعمل الآن في موضوع ما، يتكون أيضاً في حلم رجل ينام في مدينة تكساس...أوكيه...كسها وكس أمها... لكن هل توافقني الرأي بأن جميع الفنون تلتقي بهذه الطريقة. وربما الحب والتعاسة أيضاً. إذا كتب مثلاً شاعر عن الوحدة في فنلندا، فستكون قصيدته حلم إنسان نائم في بقعة أخرى من الأرض. ولو كان هناك محرك بحث خاص بالأحلام مثل محرك غوغل، لعثر جميع الحالمين على أحلامهم في أعمال فنية. يدخل الحالم كلمة أو بضع كلمات من حلمه إلى محرك بحث الأحلام، فتظهر آلاف النتائج. وكلما حُصر البحث يصل إلى حلمه، ويعرف انه ما كان لوحة أو قطعة موسيقية أو جملة في مسرحية. كما سيعرف في أي بلد كان حلمه. نعم، أنت تعرف... ربما الحياة... أوكيه... كسها وكس أمها...كان للفتاة وجه مدهش- بدا كأن إبرة ماكنة الخياطة الكهربائية قد وخزته لساعات طويلة. عشرات الثقوب الصغيرة المتجاورة انتشرت على بشرتها. قالت لي أنها إسبانية. ثم أخبرتني بعد خمس دقائق أن أمها مصرية وأبوها فنلندي. لا تعرف سوى ثلاث كلمات عربية لها علاقة بالأعضاء الجنسية، وشتيمة ضد الله فيها كلمة خراء. العاهرة، شربت ثلاثة أقداح بيرة على حسابي، وذهبت تنتظر في الزاوية المعتمة. ماذا تنتظر برأيك؟

أكيد زباً آخر يصرف عليها بسخاء أكبر. خسرت أنا في ماكنة القمار 20 يورو. شعرت بالإنهاك والجوع. ثم لوحت لصاحبة الوجه المشؤوم بحركة مسرحية ساخرة، وصحت قبل أن أنصرف وكأنني أخاطب جماهيراً غفيرة: تحيا الحياة ...

في الطريق إلى البيت، لم يفارق ذهني وجه الفتاة. خيل لي أنني التقيتها منذ زمن بعيد، في إحدى الأسواق الشعبية في البلاد. لا ادري لم تصورتها تجلس ملفوفة بعباءة سوداء و تبيع الفلفل الأخضر والأحمر. أنا متأكد من أن ثلاث أو أربع علامات شؤم تضافرت في ذلك اليوم، للإيقاع بي في تلك الورطة. اسمع...لن تصدق ما حدث...كالعادة ، ما أن دخلت شقتي، خلعت ملابسي وتعريت تماماً. كنت في طريقي إلى الحمام، حين لمحته يعدو صوبي من غرفة الاستقبال. قفزت إلى الحمام وأقفلت الباب، كنت مثل شاهد ملاك الموت. كان ذئباً، والله ذئب ... لكنك ستقول ربما يكون كلباً...أول الأمر لم يكن هناك حين نظرت من ثقب المفتاح. كنت أرتجف حقاً. عم صمت مرعب لدقائق طويلة. وبعد عدد من مرات النظر من الثقب، تأكدت من أنه ذئب. وصلني لهاثه، ثم رأيته وهو يشم بنطالي ولباسي الداخلي عند باب الشقة. جلس بعدها و أخذ يرمق بحزن باب الحمام.

ذئب في وسط المدينة وفي بناية سكنية وداخل شقتي أنا بالذات! جلست على مقعد المرحاض، وأخذت أفكر: لا أحد غيري يملك مفتاح الشقة، ثم أني أسكن في الطابق الرابع، وحتى وإن افترضنا أنه...أوكي...طار...ودخل من الشرفة، فباب غرفة الاستقبال المطل على الشرفة مقفل دائماً. تبولت من دون أن أشعر بتدفق البول. كنت كالمشلول، عارياً فوق مقعد المرحاض وفي شقتي ذئب. ما هذا العبث؟

أخذت ألوم نفسي وأشتمها. لم أتعر مثل قحبة كلما دخلت شقتي. لو كان هاتفي النقال معي لاتصلت بالشرطة، وانتهى كل شيء. أي كيس قذارة أنا؟ سكير عاطل عن العمل، أجوب البارات لالتقاط رزقي، ومِن مَن؟ من محطمين لا يقلون عفونة عني. من أناس سحب العالم الجديد واللامع البساط من تحت أقدامهم. خذ مثلاً، امرأة بدينة في نهاية الثلاثين من العمر، تبحث عن مضاجعة عابرة مع مهاجر لاجئ لم يبق برغي واحد لم يصدأ فيه. نحن الذين من دون مؤخرات مشدودة وشهية. لدينا ثقوب للخراء فقط...كسها وكس أمها...حتى الفتاة التي التقيتها في ذلك اليوم، صاحبة الوجه المطرز بالثقوب لم تقتنع بدعوتي. انتقلت إلى طاولة أخرى وراحت تنتظر زبالة أفضل. لو قبلت دعوتي للنياكة وعادت معي إلى الشقة، لهربت واتصلت بالشرطة أو الجيران. ربما لأكلها الذئب. أي ذئب؟ مستحيل، لابد أن هناك خطأ في تسلسل أمور الواقع أو هي هلوسة، كنت أتكلم بهذا الشكل مع صورتي في المرآة.

نظرت من الثقب مرة أخرى. كان رابضاً في مكانه. لغاية الصباح بقيت ساعات قلائل. فكرت في أن أحدهم سيقلق على غيابي في النهار القادم. أكيد أنها فكرة مضحكة، وغرضي منها مواساة موهومة. فأنا أعيش وحدي منذ سنوات، ولا أعرف سوى فزاعات البارات المنزوية. وهؤلاء يشبهونني. وحيدون يلتقطون رزقهم. وإن لم يحصلوا على شيء، يعودون إلى أسرتهم القذرة ليأكلهم الحزن والليل. الوحيدون الذين يمكنهم أن يطرقوا بابي هم جماعة شهود يهوه. وهؤلاء اختفوا منذ مدة. ربما

أصابهم اليأس من سخريتي المتواصلة من ربهم. أغرقوني بمجلاتهم. رغم إنني كنت استمتع بجملة واحدة من أكداس كتبهم ومجلاتهم. الممتع في تلك المجلة، هي تلك المحاولة اليائسة للوصل بين كشوفات العلم وقصص الكتاب المقدس. كانت تزورني من شهود يهوه فتاتان جميلتان. مخيلتي المريضة كانت تدفعني إلى الترحيب الحار بهما. كنت أظن أن إقامة علاقة جادة معهما يمكن أن تنتهي بمضاجعة حامية. تخيّلْ: فتاتان من شهود يهوه، عاريتان في سريري. واحدة تمص زبي والأخرى تعطي بظرها للساني، وهي تقرأ مقطعاً من الكتاب المقدس. كنا نتحدث عن مواضيع كثيرة. وكان الموضوع الذي أثارني أن جماعة يهوه لا يؤمنون، كما اليهود بعملية نقل الدم . كنت أمزح معهن قائلاً إن الدم لذيذ، وهو شراب مصاصي الدماء. كنت أتكلم معهن عن أهمية الدم. يقول مدير مركز أخلاقيات علم الاحياء في جامعة بنسلفانيا وبكل برود علمي: أهمية الدم في العناية الصحية تضاهي أهمية النفط في قطاع النقل. وحين تستخرج سنوياً البلايين من براميل النفط لسد حاجة البشر إلى الوقود، يسحب من المتبرعين نحو 90 مليون وحدة دم لإنقاذ البشر. هذا الرقم الضخم يعادل كمية الدم الذي يسري في عروق حوالي 8,000,000 إنسان. رغم ذلك يبدو أن مخزون الدم لا يكفي. شأنه شأن النفط. والتحذيرات مستمرة من هذا النقص. كان كوكتيل المعلومات العلمية هذه، أو ثرثرتي الجادة، بتعبير أدق، من أجل أن تعرف فتيات يهوه، بأني كنت حقاً إنساناً مهماً في بلدي، وقبل أن أصل إلى فنلندا ويصيبني العقم. أخبرتهن إنني خبير في اللغة العبرية. وكنت أترجم لوزراة الدفاع وجهاز المخابرات بعض التقارير السرية. وأضفيت أهمية بوليسية وبعض المغامرات على طبيعة مهنتي. كنت أهذي معهن طويلاً، واستعرض ما في مخيلتي أثناء الحوار مازجاً الجد بالهزل. أطرح الأسئلة أيضاً، وأجيب عنها بنفسي، بينما تجلس الفتاتان مثل حمامتي سلام. تبتسمان وكأنهما وصلتا للتو من السماء. لكن ماذا لو تفشى وباء مميت في العالم، واحتاج كل إنسان إلى دم جديد؟ وقبل أن تحزر الفتاة الكبيرة الجواب، كنت أقول مثل خبير يشرح علم الجينات: أكيد أن حرباً كونية جديدة ستندلع، مع ذلك لا داعي للقلق، ففي حالة نشوب الحرب من أجل الدم، اعتقد أنها ستكون حرباً نظيفة يمنع فيها استخدام أي سلاح تقليدي، أو متطور، ولا حتى سكين لتقشير الفاكهة، فستكون حرباً مثل لعبة كرة القدم الأمريكية، وجنوده سيرتدون ملابس رياضية خفيفة. بالطبع لا فائدة من حرب تسيل فيها الدماء عبثاً، في حين أن العالم بأمس الحاجة اليها، لذا لا تهاون ولا رحمة مع الجندي الذي سيستخدم أي سلاح.. لكن أية حرب هذه ؟! ... كسها وكس أمها ... مهمة الجيوش المتقاتلة ستكون أسر أكبر عدد من جنود العدو. يشتبك الجنود مع بعضهم البعض، ويحاول كل طرف أسر أكبر عدد من جنود العدو ثم نقلهم في شاحنات تنتظر في الخطوط الخلفية. ستكون آخر الحروب، وتنتهي حين يسحب دم آخر إنسان. تنقل الشاحنات أقفاص الجنود الأسرى إلى مختبرات سحب الدم الذي يوزع بعدها بصورة عادلة على المواطنين.... ابتعدنا عن الحكاية... هل تصيبك ثرثرتي بالدوار...كسها وكس أمها...أوكيه...كنت أكلم نفسي وأنا أرتعش: الذئب يا ربي...الذئب! لم لا يتزحزح من مكانه.

لم لا يذهب على الأقل إلى غرفة المطبخ، ليبحث عن شيء يأكله. الحركة الوحيدة التي كان يقوم بها أثناء تحجره أمام باب الحمام هي شم لباسي الداخلي، بعدها يرمق الباب بعيني قاتل. أكيد أنها كانت فكرة خرائية، خروجي من الغابة والعودة إلى العيش في المدينة. لكن اللعنة على البعوض مصاص الدم. هل تعرف أن أنثى البعوض هي التي تتغذى على دم الإنسان، بينما الذكر لا يحتسي سوى عصارة النباتات ورحيق الأزهار. لقد مكثت أكثر من خمسة شهور في الغابة. أصيد السمك كل يوم في البحيرة القريبة، وفي المساء أترجم كتاباً شيقاً يتحدث عن أصول اللغة العبرية. كنت سعيداً بعزلتي، بهبات الغابة: نسيان لعالم البشر. كنت أشرب النبيذ الأحمر وباعتدال. لكن المصيبة كانت أن جميع المراهم التي طليت بها وجهي وجسدي لم تصد هجمات البعوض. وكيف أشعر بالسكينة وعصابة البعوض تحلق فوق رأسي طوال النهار، مثل هالة المسيح في الرسومات القديمة. في الليل تخترق إناث البعوض الشراشف مثل المدرعات، وتمص دمي بشبق وشراهة. سخر مني صاحب البيت حين حدثته عن البعوض. قال إن البعوض يحبني كثيراً. أخيرا توجت معاناتي من البعوض بمغص شديد في معدتي. أخبرني الطبيب إنها مجرد خربطة في تناول الطعام، وعليّ بتناول الخضروات. قال أيضاً أن من الأحسن لي العودة إلى المدينة والاختلاط بالناس. واضح أن المعدة تتأثر بحالات العزلة أيضاً. فهمت منه أيضاً إني تحدثت بطريقة غريبة عن نفسي. باختصار كان قصده حاجتي إلى طبيب نفسي. أوكيه...أنا مستمع جيد في أغلب الأحيان وأقدر النصائح. التزمت بالشق الثاني فقط من نصيحة الطبيب وعدت إلى المدينة والاختلاط بحثالات البارات المنزوية. خارج زجاجة الكحول، يكون العالم بحاجة إلى مصارع ثيران. داخل زجاجة الكحول، العالم مسرحية هزلية، بحاجة إلى المزيد من المهرجين... وكسها وكس أمها ...

لم يكن في الحمام سوى المنشفة وأكوام من الجوارب والألبسة الداخلية المتسخة. كنت منهكاً وبرداناً. تأكدت من أن ضيفي لا يزال في مكانه. أخذت دوشاً ساخناً. وعدت للتفكير في الأمر. لو كان لي أعداء، ربما كان من المنطقي التفكير في أن العدو المفترض، جاء بالذئب إلى شقتي. لكن كيف يمكن جلب ذئب إلى شقة رجل آخر، بلا معونة من يعمل في حديقة الحيوانات، ومن دون سيارة خاصة بنقل الذئب. ربما يكون ذئباً أليفاً مثل الكلب. أو...ربما أكون قد جننت وأتوهم ما يحدث. هل يمكن لإنسان عاقل أن يصدق ما أرويه لك...لا تقل انك تصدقني... لكنه... بحق يهوه وعباده وملائكته .. ذئب حقيقي...ربما كان الطبيب محقاً!

غطيت جسدي بالمنشفة وغطست في نوم عميق فوق الجوارب والألبسة الداخلية. وحين أفقت، داهمني صداع شديد، حفر في رأسي مثل جرافة مزمجرة. ربما كان النهار قد انتصف. الجنون الذي لا يصدق أيضاً هو أن الذئب باق في مكانه...خره...ألا يشعر بالجوع ، ولم هو جامد مثل أبي الهول! فكرة الجوع انسابت في دماغي مثل أفعى من زئبق. جزعت وأطلقت صرخة عالية. هل أبقى محبوساً في

الحمام إلى أن أموت جوعاً، لكن ألا يموت الذئب من الجوع أيضاً. معلوم أن الذئب يتحمل الجوع أكثر من الإنسان. لكن لدي الماء في الحمام أما هو فلا تفيده بشيء حنفية المطبخ. لكن قد يموت هو من العطش وأنا من الجوع. لا، لا...في المطبخ هناك قدر الحساء على الطاولة. لا أدري إن كان حساء الليلة الماضية سيعجبه. عموماً على الطاولة خبز أيضاً إن رغب ....

انتابتني فجأة هستيريا فظيعة، ورحت أضرب على الباب بقوة، وأصرخ طالباً النجدة، ومن حين إلى آخر كنت أرقب ردة فعل الذئب اللعين من الثقب. أين الجيران، هل دخلت عليهم الذئاب ... لا ، لا .. لا يمكن أن أموت هنا في الحمام. فكرت أنه من الأفضل أن يأكلني على أن أموت بهذه الطريقة البشعة. ولم يأكلني! كنت أرد دائماً على مخاوفي أمام المرآة. ربما أتصارع معه، وأتمكن من الهروب، ربما يكتفي بجرحي. وحتى لو بتر ذراعي فقط، فهذا أفضل من أن أموت متعفناً في الحمام. طششت الماء على وجهي، وبقيت أغسل أسناني، وأدقق في ملامحي أكثر من ربع ساعة. كنت أركل الجدار أو أزمجر وأشتم. ثم جاءتني فكرة...لم لا افتح الباب وأرمي المنشفة وأرى ما سيحصل. لكن يا شجاع... ماذا لو نط بسرعة وتعذر عليك الهرب. قمت بجولة أخرى من الصراخ والضرب على الجدران، استخدمت علب الشامبو حتى تكسرت. جلست منهاراً مرة أخرى فوق مقعد المرحاض. كورت يدي مثل طاسة وشربت من ماء المغسلة، ثم انفجرت بالبكاء. ارتميت فوق بلاط الحمام البارد، منكمشاً على نفسي كمن يرغب عن إيمان وتوق في الاختفاء من هذا العالم.

في ساعة متأخرة من الليلة الثانية، قررت أن أضع نهاية لهذه المهزلة. أما أن يأكلني أو آكله بنفسي. كنت أشعر أن طاقة هائلة وقودها الانتقام قد تحركت في داخلي. سأمزق هذا الذئب التافه والجبان. سأقطعه وأشوي لحمه ورأسه أيضاً... كسها وكس أمها ... فتحت باب الحمام ببطء . انتصب الذئب واقفاً. عدوت أنا بكل ما أملكه من قوة وقفزت تجاهه. كانت اللحظة الأخيرة التي أتذكرها هي قفزة الذئب نحوي...

كان ظلاماً بارداً ومخيفاً. ظلاماً أصم. الشئ الوحيد الذي كان يعينني في الظلام تذكري ما حدث في اللحظات الأخيرة. رغم أن رعب اختفاء وجودي كجسد كان يشل محاولتي في أن أكون صبوراً و منتظراً رحمة الله في ذلك الظلام. ما أعرفه هو أنك حين تموت لا يتبقى أي خيط من ذاكرة، أو أي إدراك للحياة التي عشت فيها، وعلى النقيض من حالتي. رغم أن الموت كعدم مطلق هو مجرد افتراض لا غير. أردت أن أصرخ طالباً النجدة. لكني لم أكن أعرف أين هو فمي وحتى أني لم أعرف كيف بمكنتي أن أطلق صرخة. ما هي الآلية أو الحركة التي علي أن أقوم بها كي أصرخ! كيف لي أن أتبين من جديد أين هي قدمي، وكيف يمكن أن أعثر على شعري كي ألمسه. هل أنا ميت؟ كان

المأزق الحقيقي في الظلام، لا يتعلق بالاحتفاظ بالخبرة، في القيام بحركة أو أي فعل آخر. الكارثة كانت في اختفاء الأدوات، وضياعها في بحر من الظلام. أنت تدرك خبرة (أن تنظر) لكن من دون وجود طريقة، أو أداة تفعل ذلك من خلالها. لكنني كنت أشعر بالوقت نفسه أنني مازلت موجوداً كنقطة صغيرة من الوعي في مكان ما من هذا العالم. لا أدري كم استغرق ذلك. النقطة الصغيرة اتسعت وأخذ الإحساس بسخونة جلدي، والتنفس، يعودان بتمهل، وبنظام بطيء، كان يتسارع تدريجياً.

يبدو أن رأسي كان قد ارتطم بحافة الكومدينو الصغير، وفقدت الوعي. دم قليل سال. لم يكن هناك أي ذئب في الشقة. لقد اختفى وكأنه قد تبخر. كان باب الشقة مغلقاً، ولم يكن سوى باب الحمام مفتوحاً. ارتديت قميصاً، وأخذت هاتفي النقال من جيب البنطال المرمي على الأرضية، قرب مكان الذئب الذي تلاشى. تجولت بقليل من الحذر في الحجر. لا أحد سواي في البيت. جلست على حافة الكنبة وشغلت جهاز التلفزيون. كانت هناك إعادة لحفل توزيع جوائز الأوسكار، وكان الممثل براد بيت يطوق خصر انجيلينا جولي، وهو يتحدث عن حظوظه في الفوز بجائزة. لقد قررت العودة إلى الغابة ومحاولة التصدي للبعوض بدل أن تظهر لي، ولربما، التماسيح .. كسها وكس أمها .. هذا آخر كأس أشربه معك...أنت حقاً رجل غريب، ربما تشبهني قليلاً... لديك قدرة على الإصغاء تثير الشك...أظن انك...أوكيه ... ربما كأس آخر قبل أن أنصرف...كسها وكس أمها...لم أتشرف باسمك... أنا سلمان..

ــ حسن بلاسم ، سعيد بلقائك ....

*

سوق القصص

كان يرد على دعوات منتقديه من أصدقائه القلة بما قاله الروائي المجري بيلا هامفاش (أنت تتعرف في البيت على العالم، وفي السفر على نفسك...). لم يغادر خالد الحمراني مدينته قط، وها قد بلغ من العمر السابعة والخمسين. بل لم يكتب ولو قصة واحدة لا تدور أحداثها حول السوق الشعبي القريب من سكنه. لقد أصدر حتى الآن، وعلى نفقته الخاصة، ثلاث مجاميع قصصية كان السوق عالمها.

في حوار طريف معه في إحدى الصحف المحلية قال: يمكنك أن تجعل من بائعة السمك في السوق مركبة فضائية تائهة في الكون، أو أن تحول الباذنجان إلى درس في الفلسفة، المهم أن تراقب طويلاً مثل من يتأمل انتحاره من شرفة. كما المهم أن تملك مخيلة غير استعراضية، لكن خبيثة، وفي منتهى الجد، وأن تكون لك روح زاهد يحتضر. هذا السوق الشعبي الذي أكتب عنه، هو بالنسبة لي محيط شاسع، وأنا مجرد فقاعة لا شك في وجودها، لكنها غير مرئية بوضوح. أما جوابه عن سؤال حول قصصه، وكيف أنها متشابهة، مملة، لأن السوق وحده علبتها السحرية، فكان جوابه مباشراً:

القرف بالنسبة لي هو البحث عن تجارب وأماكن جديدة من أجل قول الشيء نفسه. فالعالم كله ينعكس في عيني طفل واحد، أليس كذلك؟ أو حتى في دم دجاجة مذبوحة في سوق شعبي (يضحك الحمراني ثم يكمل حديثه ساخراً) أنا لا أبحث عن نفسي، أريد أن أسبح في بركة واحدة، وأنا متأكد من أنها الكون بأسره...

أفاق خالد الحمراني في صباح ذاك اليوم مثل من خرج من بئر وحول. هرع فوراً يبحث عن القلم الذي أسقطه من قرب السرير، وكتب بسرعة وشغف أرقاماً على الحائط من دون أن ينهض من سريره. كانت زوجته لاتزال تشخر قربه، والأولاد كانوا نياماً أيضاً. فمنذ أن اشتدت التفجيرات والقتل العشوائي في بغداد، لم يعد أحد في البيت ينهض مبكراً. الأولاد تركوا المدرسة، وهم لا يلعبون إلا

لوقت محدود أمام البيت. أما زوجة الحمراني فلم تعد تذهب لزيارة أهلها ولا حتى للتسوق. كانت هناك نقود قليلة جمعها الحمراني من عمله كبائع عصير العنب في شارع الرشيد.

جلس الحمراني على حافة السرير يتأمل الأرقام الخمسة بجدية وريبة. إنها المرة الأولى التي يرى في منامه حلماً يتعلق بالأرقام. ظن أن الأرقام ستختفي حالما ينهض من سريره. لكنه شعر حين أعد الشاي أنها تشع في دماغه مثل خمس جمرات. راقب ريحاً خفيفة صباحية مزعجة تريد فتح نافذة المطبخ الصغيرة. كان جالساً فوق البساط على الأرض، ممدداً ساقيه وهو يرتشف الشاي. حاول جمع صور الحلم من جديد. لكن هذا لم يكن سوى صورة واحدة. ظهر فيها واقفاً أمام حائط عملاق متآكل بفعل الرطوبة، وكانت الأرقام مكتوبة بلون أزرق مشع. شعر بألم فظيع في ركبتيه حين وقف مشدوهاً أمام الحائط. ما الذي تكونه هذه الارقام؟ فكر الحمراني في الأمر، من دون أن يجهد نفسه طويلاً في التفكير بأمر الحائط. فنحن نرد بعض أحلامنا لخبراتنا وتجاربنا في الحياة. الحمراني كان قد كتب من قبل في سيرة حياته السرية، وغير المنشورة عن ذكرى حائط من أيام طفولته. كان يشعر بالخجل من كتابة سيرته، لكنه كان قارئاً مدمناً لما يكتبه الآخرون عن حياتهم (***في طفولتي، في العام 1983 سقط جناح طائرة حربية إيرانية على الزقاق المجاور. الدفاعات الأرضية أصابتها من بين خمس طائرات أغارت على حقول النفط. جزء آخر من الطائرة سقط في مزرعة للبطيخ الأحمر. كنا نسكن في حي حكومي في مدينة كركوك النفطية. بيوت بنتها الحكومة للمنتسبين إلى الجيش وفق تصميم واحد: غرفة نوم، وغرفة استقبال، وحمّام، ومرحاض، وحديقة خلفية صغيرة. كان الكبار يتحدثون عن بنت التصق مخها بالجدار، إثر سقوط الجناح الذي سدّ الزقاق، وهدم واجهات بعض البيوت. كل أطفال الحي سمعوا بمخّ البنت. قال ولد في المدرسة إن جسد البنت طار عالياً إلى السماء، من دون رأس، ولم ينزل. بعد حادثة الجناح أخذت أغيّر طريق العودة إلى البيت، وصرت أنعطف إلى ذاك الزقاق. أستجمع أنفاسي ثم أنطلق، قاطعًا الزقاق بأقصى سرعة، لمشاهدة مخّ البنت. لكني لم أره في كل مرة. كنت أزيد من سرعتي من غير أن التفت إلى الجدار الذي التصق فيه مخّ البنت، و كما سمعت كانوا قد أخذوه من هناك. كان الخوف يدفعني إلى الاقتراب من مصدره، والهروب منه في الوقت نفسه***).

هل توجد علاقة بين الأرقام، وجناح الطائرة، أو مخ البنت؟ كانت الأرقام هي (3، 14، 9، 2، 22) ربما هي رقم هاتف أحدهم. أكيد أنها ليست كذلك، فهي لا تشبه نظام أرقام الهواتف الأرضية، ولا الهواتف النقالة. مجموع الأرقام هو خمسون. أي أنها ليست نبوءة عن العام الذي... سأموت فيه.

أخبر زوجته بحلم الأرقام، وهما يتناولان الفطور مع الأولاد. ابتسمت وهي تقول (خير إنشاء الله، الأرقام بالأحلام يعني فلوس جاية بالطريق، خير إنشاء لله ... صحيح أبو فاطمة، إذا تجيبلنا اليوم بدربك من السوق نصف كيلو لحم وكيلو بصل، ها صحيح، ولا تنسى القندرة مال حسن، أنت تعرف. العيد بعد أربعة أيام).

فكر وهو يجوب السوق، ويتأمل فوضاه التي نادراً ما تنتظم، بأن عليه أن يعيد كتابة قصة البرتقال التي أنهاها قبل أسبوع، وأن لا يشتت ذهنه في البحث عن قصة جديدة. أو ربما تفكيره في الأرقام كان يمنعه عن التركيز في غنم سلعة قصصية جديدة. وأنا علي أن أوضح لكم أن قصصه لم تكن شائقة كثيراً لدى غالبية القراء ولا حتى لمن يسمون أنفسهم بعد سقوط الدكتاتور خاصة، بالنخبة المثقفة من الكتاب والفنانين. فالأدب في البلاد هو أدب مراحل. فمنذ السقوط هناك دعوات لا تتوقف إلى الكتابة بطريقة مفهومة، واقعية، وثائقية، تطبيبية، أنهم يتباكون على قراء لا وجود لهم. كما وجدوا أن كتّاب الأزمنة السابقة هم الذي تركوا القراء يهربون. في حين أنه منذ مئات السنين لم يكن هناك في البلاد قراء بالمعنى الواسع للكلمة. لم يكن هناك سوى جياع، وقتلة، وأميين، وجنود، وقرويين، ومصلين، وتائهين، ومظلومين. يبدو أن كتابنا قد ملوا من لعبة الكتابة لبعضهم بعض. هم يحملون أيضاً مرحلة الديكتاتورية السابقة مسؤولية شيوع الأدب الغامض وممارسة التجريب بطرق مبالغ فيها، كأن الغموض والتجريب تهمة أو ابتكار بعثي. هم موظفون يبحثون عن دور جديد لهم في هذه المرحلة. إنهم أدباء المراحل الذي يريدون أن يسطوا اليوم على جميع الأدوار. يدعون أنهم عمال بناء سيبنون ما خربته الحرب، وإنهم سياسيون مثقفون، واقتصاديون، وإنهم أطباء جراحون، ومفسرو مصائب، ومحطموا أصنام الدين، والخرافات.

أما الحمراني فهو من الصنف الذي لا يفهم ماتعنيه المراحل، ما يهمه، حسب قوله، جوهر الإنسان الذي لا يمكن للمراحل أن تزيف أو تغير حقيقته. لذا تكون قصص الحمراني، حسب تصنيف أبطال المرحلة الجديدة، قصصاً تجريبية غامضة. ولنأخذ على سبيل المثال قصته: اسم البرتقال. التقط الحمراني قصته هذه، عندما لمح في السوق، فتاة شابة ترتدي عباءة سوداء، وتمزق كيس البرتقال الذي تحمله، لتتدحرج البرتقالات في وحل السوق. صحيح أنه يفترض أول الأمر أن الفتاة الشابة هي إرهابية ستفجر نفسها في السوق. مما يشد القارئ في البداية ويثير فضوله. خاصة أن المرأة في خيال الناس وضمائرهم هي عبارة عن عضو تناسلي ومؤخرة وثديين- كتلة من اللحم الشهي مخصصة للنيك والطبخ. ولربما مثل هذا الانتحار إهانة لفحولتهم . رغم أنه حتى تمزق لحم امرأة يصلح أيضاً لمزحة تتعلق بدغدغة قضيب الرجل. سمع الحمراني ذات يوم من بائع الحلويات مزحة خرائية، يقول

بائع الحلويات: بأن صديق له يبيع السمك في سوق شعبي آخر. عثر على كس الانتحارية بين السمك، حين فجرت نفسها في ذلك اليوم بحزام ناسف. في الحقيقة كانت زوجة بائع السمك من عثر على الفرج، حين عاد الرجل ببضاعته إلى البيت. طلبت الزوجة منه تفسيراً منطقياً، لوجود كس شابة صغيرة بين السمك. أنه نوع من الهلوسة الشعبية التي تنبع من تاريخ طويل من العنف والظلم والضياع، وهي ليست سخرية معبرة لمواطنين ينتمون إلى مدينة معاصرة. أنها هلوسة بدائية قبلية تحاول الاختباء خلف ضحك دموي تافه.

لكن الحمراني، سرعان ما كان ينقل قارئه إلى عالم آخر، من خلال الصور التي تظهر فجأة في قصصه، لتغير من مسار السرد، ومن مسار اللغة نفسها. وهذا ما كان يربك القارئ ويحرك نقاد المرحلة الحالية ضده. فهو يقول مثلاً في قصة البرتقال، إن الشابة الإنتحارية التي ترتدي عباءة سوداء كانت تسير قبل أن تصل إلى السوق في طريق ترابي مهجور، عارية تماماً، وهي تحمل شجرة برتقال فوق ظهرها كصليب. ويقول أن آثار السياط كانت تخطط جلد الشابة العارية. الغريب أن الحمراني ينشغل بعد ذلك ومثل رسام انطباعي، في ذكر تفاصيل عن أصابع المرأة، وهي تلتقط حبات البرتقال من الوحل. ربما يكون نقاد الحمراني محقين. فهو الآخر مجرد مروحة هلوسة تدور في كل الفصول.

جلس الحمراني قرب بائع الشاي، الذي كان زبائنه يجلسون أمامه فوق مصطبة خشبية منخفضة على شكل قوس. دخن ثلاثة سجائر مع قدح الشاي. وكانت الأرقام تدور في ذهنه وتقلقه. كان بائع الشاي يحدث زبائنه عن دورية الشرطة التي عثرت على 20 رأساً مقطوعاً أمام باب جامع السلام. شغل البائع جهاز التسجيل الصغير، وصدحت أغنية شعبية تتغزل بنهدي فتاة شابة. رجل بدين يرتدي دشداشة بيضاء حدث بائع الشاي عن سحبة اليانصيب الأخيرة التي ربحها رجل فقير يعيش في بيت من صفيح. قال البدين: رزقكم في السماء وأنتم لا تعلمون. ابتسم الحمراني للفكرة التي خطرت بباله. ربما أرسل له من في السماء أرقام الحظ كهدية من دون مقابل. وقد تكون الأرقام مناسبة للعبة اليانصيب. كان الحمراني يعرف دكاناً في نهاية السوق يبيع أوراق اليانصيب. ولم لا ، ليجرب الأرقام في لعبة اليانصيب، ففي الموضوع تسلية وإثارة أيضاً. لكن ماذا لو تحققت المعجزة وربحت ورقة اليانصيب. أكيد سيجهد الناس كي يحلموا ليلاً بالأرقام، وقد يتدخل الأطباء النفسيون لمساعدة الحالمين. ليس غريباً على الحمراني أن يخوض حوارات تافهة مع نفسه. هو يعرف أننا جميعاً، كخرق بشرية، نتخيل ونقول أشياء منحطة، وحتى مفزعة لأنفسنا ليل نهار. المهم أن تتواصل الهلوسة. أن تلدغ أفعى

الزمن زوار الحقل الزائلين. أن نكتب طوال حياتنا قصة أو قصيدة واحدة: هذا السوق هو عالمي وقبري وجناحي. أنا بيت الدود الذي يقلقه رقم في حلم.

أمام دكان بيع ورق اليانصيب، تبدد وهم الحمراني الذي أختلقه في ذهنه للتسلية. فكل أنواع هذا الورق كانت تحتاج إلى ستة أو سبعة أرقام، ولم يزوده حلمه إلا بخمسة أرقام، يحاول أن يجد لها مكاناً في فوضى هذا العالم. خمسة أرقام تضاعف من الغموض بدل أن تفتح باباً. شق طريقه وسط زحام السوق، بينما كان الباعة يحيونه بأصوات عالية ويمازحونه. كان جميعهم على علاقة طيبة بهذا الزبون الدائم الذي يتسوق القصص لحفظها في مخازن الورق. وبعدها تبخرت الأرقام الخمسة من ذهنه. راقب رجلاً عجوزاً يبيع صور شخصيات دينية. الميزة الوحيدة التي يشترك فيها جميع أبطال الصور، هي العمامة على الرأس. كما شاهد شاباً يرتدي قميصاً أحمر غريباً، ويحمل مجموعة من بناطيل الجينز، وفي فمه سيجارة. عرض الشاب عليه سروالاً أسود، وقال أنه سيبيعه له بنصف السعر، فهو يريد أن يبيع كل البناطيل من دون ربح، وسيجد عملاً آخر. هذه الطريقة المعروفة في جذب الزبائن يمارسها الشاب منذ أكثر من عامين. إنها الحكاية نفسها عن رخص ثمن بناطيله. وحين يذكره أحدهم بأنه قد سمع قصة بناطيله من قبل، كان الشاب يبتسم ويقول:

هسه تشتري لو ما تشتري ...

اشترى الحمراني حذاءً جديداً لأبنه الصغير حسن، ثم اشترى كيلواً ونصفاً من البصل. كان يبحث عن بائعي الأكياس الصغار من أجل الحذاء الجديد. أنزلت السماء بضع قطرات كتحذير عن المطر القادم. رفع رأسه إلى السماء حين بللت قطرة ماء ناعمة طرف أنفه. كان آخر ما شاهده، السماء الرصاصية الملبدة بالغيوم، وثلاثة طيور كانت تحلق عالياً، عندما انفجرت الشاحنة المفخخة المركونة قرب السوق، مثل بركان عملاق.

قالوا أن جسده قد تمزق إلى ثلاثة أجزاء. الساقان والجذع في مكان. وذراع بين كومة من الطماطم المتفحمة. والرأس وجزء من الكتف والذراع اليمنى قرب بائع الجينزات الذي تحول بفعل عصف النار والحديد إلى قرد صغير، مرسوم بالفحم، ومن دون ملامح. الغريب أن جميع أقارب الحمراني وأخوته أكدوا أنهم لم يتمكنوا إلا بمشقة كبيرة، من فتح أصابع يد الحمراني اليمنى لتخليصها من فردة حذاء أبنه حسن. فردة الحذاء الأخرى ضاعت في ركام أشلاء السوق. أكيد أن هذه التفاصيل مهينة ولا

معنى لها. وربما هي مثل محاولتي في إيجاد رابط ما بين الأرقام الخمسة ويوم جحيم الشاحنة المفخخة. أي رسالة مشفرة كانت هي تلك الأرقام؟.

قتل في السوق حينها أكثر من سبعين شخصاً. رقم آخر لا علاقة له بحلم الحمراني. حين تتراكم على شعب أو مجموعة من الناس سنوات طويلة من الحروب، والفزع، والفقر، والدمار، يكون البحث في التفاصيل غير المعقولة، أو حتى التافهة، أمراً شبيهاً بالشعوذة. لكن تبقى دوماً حاجة الإنسان إلى تفسير الأحداث بمنطق آخر، غير منطق العقل البارد الذي يرد النتائج، إلى مصادرها المفترضة، حاجة إنسانية نبيلة. ربما الشعوذة وكتابة القصص أيضاً هي عناق إنساني حزين للغموض.

....

أكملت طلاء جدارن الغرفة باللون الأزرق الفاتح، ولم يتبق سوى مكان الأرقام الخمسة المكتوبة بقلم رصاص. تحسنت اليوم الأوضاع في بغداد. ومازلت أرى في عالم السوق الشاسع كمادة لقصصي. مضى عامان على حلم الأرقام. وعلى كابوس قصة موتي في السوق. حسناً، بضربة أخرى من الفرشاة ، ستختفي هذه الأرقام الخمسة خلف الطلاء .لكن ما لا يمكنه أن يختفي هو رعبي الكبير من أحلام الليل وكوابيسه. لا يمكنني أن أصدق أننا حين نموت ليلاً نعود كل صباح نحن أنفسنا، من دون أن يكون قد التصق في أرواحنا غبار سري. لقد حلمت البارحة برأس خروف يتحدث عن الشمس!

الملحن

جعفر المطلبي: ولد في مدينة العمارة. عام 1973: استقال من الحزب الشيوعي وانضم إلى الحزب الحاكم، في العام نفسه أنجبت زوجته الولد الثاني. جعفر عازف عود محترف وملحن أناشيد وطنية مشهور. قتل في انتفاضة 1991 في مدينة كركوك .

يمكنني أن أحدثك اليوم عن نهايته. هل تشاهد هذه المرأة العجوز التي تصيح بأسعار السمك: إنها أمي. نحن نبيع السمك منذ أن عدنا إلى بغداد، دعني أساعدها في إفراغ صندوق السمك، ثم نذهب إلى مقهى قريب ونتحدث .

.....

بعد نهاية الحرب العراقية الإيرانية بدأ أبي يشهر إلحاده بطريقة مخجلة. سبب لنا مشاكل عديدة. ذات مساء عاد إلى البيت وقميصه ملطخ بالدم. يبدو أنه نزف من أنفه على أثر لكمة من احد الأصدقاء. كانوا يلعبون الدومينو في المقهى، حين شرع أبي في إطلاق أقذر الشتائم على الله والنبي. كان يبتكرها ويلحنها أثناء اللعب، كما تعرف كان من أشهر الملحنين. صفر أبي في البدء بلحن مبتكر على الطريقة العسكرية، ثم أضاف شتيمة جديدة: مسمار في خصوة أخت الله !

كثيرون انفجروا بالضحك إثر سماعهم ما ابتكرته مخيلة أبي من شتائم، لكنهم سرعان ما يهربون منه مستغفرين ربهم. بعضهم لم يطق لقاءه في الشارع. أخبره احدهم ذات يوم ممازحاً أنه يتمنى أن يدعسه بشاحنة محملة بالفولاذ، لكن الجميع كانوا يخشون صلته بالحكومة. كتب أبي في اليوم التالي تقريرا

لمقر الحزب عن أبي علاء الذي لكمه، وبعدها بيومين اختفى أبو علاء. كنا نعيش في حي اسمه القادسية الثانية، وهو عبارة عن بيوت وزعتها الحكومة على نواب الضباط في الجيش، والآخرين القادمين من مدن الجنوب والوسط، وعائلات الأكراد الذين كانوا يعملون مع السلطة. كنا العائلة الوحيدة في الحي التي تعيش بطريقة مختلفة. فكل العائلات تعيش على رواتب الجيش والحزب والأمن إلا نحن. فقد كنا نعيش على الحان أبي للأناشيد الوطنية. كان الأب أكبر منزلة من المختار وعضو الفرقة الحزبية، وكان الرئيس نفسه قد قلده أوسمة الشجاعة لأكثر من مرة على أناشيده عن الحرب. لقد ظلت عالقة في ذاكرة الشعب حتى يومنا هذا.

اسمع خويه، سأختصر لك السالفة، بعد انتهاء الحرب بعام، تعرض أبي إلى ما تسمونه في الجرائد بالنضوب الإبداعي، لم يتمكن من وضع لحن جديد للقصائد الكثيرة التي كانت تصله من شعراء مشهورين تتغنى بعظمة الرئيس. مرت شهور، ثم مر عام، وهو عاجز عن وضع لحن جديد واحد. هل تعرف ما لذي فعله خلال تلك الفترة، أخذ يكتب قصائد فسق وكفر قصيرة بنفسه، وراح يلحنها. في مساء شتوي دافئ، كنا نشاهد التلفزيون حين وصلنا صوت أبي وهو يغني لحنه الجديد عن نساء النبي وشبقهن. فجأة نط أخي الكبير. أخرج من دولاب الملابس مسدس أبي، وركب فوق صدره وهو يضع المسدس في فمه. كاد أن يقتله لولا أمي التي شقت ثوبها معرّية صدرها وهي تصرخ . تسمّر أخي للحظات وهو يحدق في ثديي أمي الضخمتين اللتين تدلتا فوق بطنها مثل حيوان أفرغت منه أحشاؤه. كانت هذه هي المرة الأولى التي نشاهد فيها صدر أمي ونحن في ذلك السن. دخلتُ إلى المرحاض، وفرّ أخي من مشهد الأم إلى خارج البيت. كانت أميّة، لكنها أكثر ذكاء من أبي الذي كانت تعتني به بطريقة غريبة. دللته كما لو كان إبناً. كانت القابلة المأذونة في حي القادسية و قد أحبها الناس كثيراً. قرر أبي كتابة تقرير عن أخي إلى مقر الحزب. لكنهم لم يستجيبوا له. رائحة أبي صارت تفوح في الحي و الوسط الفني . قالوا إن جعفر المطلبي صار مجنوناً. و تجنبه أصدقاؤه. سافر إلى بغداد و تقدم بطلب للإذاعة والتلفزيون، كي يعيدوا بث الأناشيد الحربية التي لحنها.. على الأقل نشيد واحد في الأسبوع. رفضوا طلبه واخبروه إن أناشيده غير مناسبة اليوم، فهم يبثون الأناشيد مرتين فقط: أثناء الاحتفال بذكرى اندلاع الحرب وذكرى توقفها. أراد أبي أن يستعيد ماضيه وشهرته بكل وسيلة. حاول مقابلة الرئيس لكنه فشل، تقدم بطلب إلى دائرة السينما والمسرح لعمل فلم وثائقي عن أناشيده وألحانه، لكن طلبه قوبل بالإهمال أيضاً. أثناء كل هذه المحاولات كان قد انتهى من وضع عشرة ألحان لقصائد في شتم الله والوجود، كما كانت هناك أغنية جميلة عن الخلفاء الأربعة. أدركنا انه قد جن فعلاً، حين أخذ يتردد على الاستوديوهات، في محاولة منه لتسجيل أناشيد الكفر بصوته. بالطبع قوبل طلبه بالرفض القاطع، وبعضهم طرده وهدده بالقتل. أخيراً قرر أبي أن يقوم بتسجيل أناشيده على شريط في البيت. وضع جهاز التسجيل أمامه وأخذ ينشد ويعزف على آلة العود. كانت نسخة صوتية رديئة

بالطبع، لكنها كانت مفهومة. أسمعها إيانا عند فطور الصباح، كنا نخشى أن يعرف الناس بأمر هذا الشريط، أردنا الحصول عليه وإتلافه بأية طريقة، لكنه لم يكن يتركه للحظة يفارق جيب معطفه، وحين ينام كان يدس الشريط في جيب عمله في الوسادة .

لا داع اليوم كي نخبئ هذه النسخة، فالآخرون بحاجة إليها، فالله تقدم الآن أكثر من اللازم، سوية مع القتلة واللصوص. قد تكون ردة فعل الشارع هستيرية. لكن دعنا نطلق رصاصة في الهواء. تفضل، أنت صحفي، ويمكنك أن تفيد وتستفيد منها. عرض علي مغني شاب أن يقوم بإعادة تسجيلها وغنائها في استوديوهات حديثة، لكني رفضت. يجب أن تبقى هذه الألحان كما سجلها أبي بنفسه كدليل على حكايته، يمكن نسخها فقط، الناس ينسون بسرعة حكايات هذا الواقع. حين ترويها لهم بعد زمن، يظنون أنها حكايات من نسج الخيال. خذ مثلاً، جارنا في السوق، أبو صادق بائع البصل، حين يروي اليوم حكايته عن معركة نهر جاسم مع الإيرانيين، تبدو حكايته وكأنها فلم رعب هوليودي من نسج خياله .

هرب جيش الحكومة ودخلت ميليشات البيشمركة الكردية إلى كركوك، استقبل أهل المدينة الانتفاضة بفرح كبير. كانت هناك فوضى عارمة، ورصاص، وجثث، ودبكات، وأغان في كل مكان. لم نتمكن نحن من الهرب. كان المنتفضون قد أحرقوا بيوت كل أحياء الحكومة وبيوت منتسبي الحزب، وقتلوا ومثلوا بجثث البعثيين والشرطة والأمن. لم نتمكن من الهرب وحوصرنا في البيت. اقتحمت مجموعة من الشبان الباب المحصّن بمكتبة أبي، أخرجونا للشارع لتنفيذ حكم الإعدام بنا. كانت أمي تتضرع وتتوسل إليهم، لكنها لم تشق ثوبها هذه المرة. ماذا ... أبي ... لا، لا، أبي لم يكن معنا. قبل الانتفاضة بأشهر، أصبح مجنون المدينة المعروف. كان يطوف الشوارع وهو ينشد ضد الله حاملاً عوده الذي لم يبق فيه وتر واحد. كانت النار قد شبّت في بيتنا، سقطت أمي فاقدة الوعي ونحن نستند إلى جدار البيت الخارجي. وصلت أم طارق جارتنا الكردية في اللحظة الأخيرة وهي تصرخ بوجه الشبان، وتحدثهم بلغتهم، ثم راحت تتوسل إليهم، أن يطلقوا سراحنا. أخبرتهم عن كرم وطيبة أمي، ومساعدتها للنساء الكرديات في إنجاب الأطفال، وسهرها على النساء الحوامل؛ أخبرتهم عن خبز العباس الذي كانت توزعه أمي على الجيران، وعن شجاعة أخي الكبير، وبأنه كان من أعز أصدقاء ابنها الذي استشهد مع قوات البيشمركة أثناء حملة الأنفال، وهو الذي ساعد أبنها الشهيد في الهروب من كركوك (هنا كذبت)؛ وبأنني ولد طيب ومسالم، لا أهش ولا أنش، وختمت دفاعها بنبرة غاضبة: لا ذنب لهم بما كان يفعله جعفر المطلبي القواد، ثم بصقت على الأرض.

دخلنا بيت أم طارق ولم نخرج منه إلى أن دخلت قوات الحرس الجمهوري للمدينة، وحتى انسحاب ميليشيات البيشمركة، وهروب أغلب المنتفضين مع تلك الميلشيات .

عثرنا أخيراً على أبي من دون رأس، وهو مربوط إلى جرار زراعي بحبل غليظ. كان قد سُحل لنهار كامل في المدينة، وقد مثل بجثته بطريقة لا يمكنك تخيلها. كان أبي ساعة محاولة إعدامنا، قريب من مقر الفرقة الحزيبة. حيث كانت جثث أعضاء الحزب تملأ ساحة المقر. دخل أبي المقر الفارغ، واتجه إلى غرفة الإعلام، كان أبي يعرف تلك الغرفة جيداً. من تلك الغرفة كانت تبث أناشيده الحماسية من خلال مكبرات الصوت في سطح المقر أثناء حربنا الأولى، ومن هذه المكبرات أيضاً، كان يتحدث أعضاء الحزب للجمهور حين كان يتم إعدام أحد الشبان الهاربين من الجيش أو المتهمين بمساعدة ميليشيات البيشمركة. وضع أبي الشريط في جهاز التسجيل وأخذت مكبرات الصوت تبث أناشيده ضد الله والوجود على مسامع المنتفضين. كان أبي يحضن آلة العود ويبتسم، حين دخل المنتفضون واقتادوه إلى الخارج. أستميحك العذر يا صديقي، هناك تاجر سمك سيجلب اليوم بعض شوالات سمك الزوري، على أن اذهب الآن. غداً سأخبرك بسر علاقة أبي مع أم طارق الكردية.

خنفساء الروث

دكتور، هناك قصص للأطفال، وقصص قصيرة جداً للمرضى الذين لم يعد لديهم الكثير من الوقت. هناك قصص على شاطئ البحر، يعني قصص صيفية للأثداء التي تتشمس ، قصص كسولة عن غائط الواقع ، قصص للنخبة ، للأوقات المملة ، للأمهات الحوامل ، للسجناء. أنا لا يمكنني أن أكتب قصة، لكني مستعد للتدخل في قضية الأدب، لغرض واحد فقط : من اجل كرامة من هم على حافة الجنون. أما أنا فلست إلا مسماراً في عين مصلوب ...

كان الطبيب يقود السيارة لزيارة والدته في مدينة صغيرة قريبة من العاصمة. الطرق زلقة، بعد أن ضربت الثلج شمس البارحة، والتي ظهرت فجأة من خيمة العتمة في هلسنكي. في الصحف ظهرت صورة تلك السيارة محطمة بعد اصطدامها بمقدمة باص مدرسي، احترق فيه تسعة أطفال وجرح آخرون. قتل الطبيب أيضاً. بدت جثته كأن منشاراً كهربائياً شطرها إلى نصفين. كان إنساناً طيباً امتلك روح زاهد. وكان طبيبي النفسي منذ أكثر من عام ونصف. مؤخرته جميلة جداً. أنا أعرف بم ستفكرون، أيتها الضفادع!

خنفساء الروث التي تعيش في الصحراء الأفريقية تعمل كريات صغيرة من الروث، تضع فيها البيض وتدفنها في الأرض. تعتني به إلى أن يفقس. يقرأ الرجل في موسوعة سميكة عن الحشرات وهو يتحسر على حال البشر. يحلم بأنه أصبح من أجنة الروث المدفونة في الأرض، وأنه الآن داخل بيضة. تخيل أن الألم هو خنفساء عملاقة طيبة صارت أمه.

هذا الصباح استلمتُ مع إعلانات البيتزا والصحف المجانية، من فتحة الباب، رسالة من المستشفى. غرامة مالية قدرها 27 يورو بسبب عدم حضوري في الموعد المقرر مع الطبيب الجديد، قبل

أسبوعين. طيّب، هل أستحق مثل هذه العقوبة؟ بعدها قفز إلى ذهني برغوث آخر: عشر سنوات من دون أن أرفع سماعة الهاتف للسؤال عن أمي وأخوتي الذين أعرف في أي جحيم يحيون. براغيث أخرى من كل صنف وشكل تحبس الهواء في دماغي.

أخذ الرجل يتأمل قلبه الغليظ من زوايا عدة، ولم أخذ في سن مبكرة يغلفه بطبقة سميكة من الأسمنت والحديد. لم يعثر على الجواب، بل محض أحاسيس غامضة لا تعينه في تفسير قسوة قلبه وهروبه المتواصل من الماضي. لكن ألم يرد أن يختار بنفسه حياته ويكون سيّدها. هاهو الآن يسكن في شقة جميلة في هلسنكي، وبعد عام تذهب الصغيرة مريم إلى المدرسة، ولدى زوجته مدخرات من عملها في مطعم البيتزا، وتفكر الآن بفتح مطعم يقدم الأكلات العراقية. تفكيرها جاد هنا: نادلات مطعمها يلبسن زياً هجيناً، عراقياً وآخر للراقصة الشرقية. ديكور المطعم ذو طابع تراثي. وإذا جاءت الموافقة فسيقف أو يبرك جمل حقيقي في إحدى زوايا المطعم. سترافق الطعام وصلات من الموسيقى الشرقية. أما الأرضية فستفرش بسجاد عليه صورة السندباد، أما البخور في المطعم فسيخرج من مصباح قديم يذكر بمصباح علاء الدين. لقد فكرت بكل ما يداعب مخيلة الفنلندي والزبون الغربي عامة عن بلاد ألف ليلة وليلة. مرة سأل روائي فنلندي شاب الرجلَ راسماً على وجهه علامتي تعجب واستفهام كبيرتين:

كيف قرأت كافكا؟ هل قرأته باللغة العربية؟ كيف تعرفت على كافكا بهذه الطريقة؟ شعر الرجل كأنه متهم، والروائي الفنلندي محقق، وكافكا كنز من كنوز الغرب سطا عليه العراقي علي بابا. بمكنة الرجل أن يسأل بالطريقة نفسها أيضاً: هل قرأت كافكا بالفنلندية ؟ !

ـــ دكتور ، راقبنا الكوكب (دوعيس توملا) أربع سنوات ضوئية ، وتأكد لنا بأن لا أحد يعيش عليه سوى الستة الذين رصدتهم كاميرات المراقبة الفضائية. المثير للدهشة هو أن هؤلاء لم يبارحوا حدود قريتهم على ضفاف النهر الأحمر. وهذا عبارة عن نهر متجمد، لكنا لا نزال نجهل طبيعة مادته. يبدو لنا كأنه نهر دم متجمد. ويبدو لنا من نتائج المراقبة أن أحد الكائنات الستة هو قائد المجموعة. بيته المنعزل عند جرف النهر، على هيئة كأس، بينما بقية البيوت عبارة عن غرف زجاجية على هيئة فقاعة ماء. البيوت متجاورة بخط منحن. طوال تلك الأعوام لم نرصد من طرق عيشهم سوى ما يقومون به كل يوم بشكل روتيني صارم. يبقى الخمسة في بيوتهم طوال الوقت بينما يجلس السادس من دون حراك على حافة النهر الأحمر. بعدها يخرج الخمسة سوية ويتوجهون إلى السادس. يحيطون به، ثم يسلمونه شيئاً ما غير مرئي. وحين يبتعدون عنه عائدين إلى غرفهم، يعود السادس إلى غرفته أيضاً. يمكث بعض الوقت هناك ثم يخرج ويرمي أشياء غير مرئية إلى النهر ثم يعود إلى مكان

جلوسه. قررنا أخيراً أن نقضي عليهم بأشعة الليزر ولا نجازف بالاتصال بهم. أظن أن زمن المغامرات قد انقضى. ذلك الزمن الذي سبب اختفاء أرضنا القديمة. لكن المثير للضحك، هو أنه كان بيننا رائد فضاء عجوز غريب الأطوار لا يزال يكتب الشعر. وهذا السلوك المتخلف كما تعرفون كان يمارسه أسلافنا الأوائل على الأرض. كان يقول: هؤلاء الستة هم الله ! لكم أن تتصوروا أنه بعد كل هذا التأريخ الطويل للوجود ووصول الإنسان إلى خلود الإنسان بعد انتصاره على الموت، هناك من ظل مؤمنا بالله. ولابد من معاقبة رائد الفضاء وإخضاعه لعلاج نفسي طويل. فهو مصاب بداء الإيمان المنقرض في عصرنا هذا، عصر الإبحار الأزلي، عصر الخلود الثاني الخالي من أي هدف أو اتجاه.

لكن في ليلة هادئة وجميلة خرج رائد الفضاء من غرفته للسباحة. ارتدى بدلته وقفز إلى الفضاء، وأخذ يسبح ببطء، ويتأمل النجوم البعيدة. وبعدها بقليل، لم يفعل رائد الفضاء أكثر من قلب حروف اسم الكوكب في ذهنه، وقراءته من جديد: الموت سيعود ...

بعد هذا الاكتشاف اللغوي الصغير، والذي اعتبره بعضهم محض شعوذة، دب الذعر بين سكان المجرّة وعقدت مؤتمرات عديدة للبحث في الأخطار المحتملة ...

ـــ دكتور، لهذا كان لابد من عودة كتابة الشعر. فقد حرّكت كلمة الموت مروحة الأحاسيس من جديد ...

لا أريد النظر بصفاء وهدوء، لقد تعبت، أريد أن أصرخ. أنا مثل أي واحد منكم، حشد من القردة الفصامية تعيش في جسد واحد. أنا سمكة تحترق في فرن، بينما المطر ينهمر في الخارج. صورة أخرى وتخرج السموم من فمي. ابتسمي يا أمي لكي ينضج التمر. حسناً، ظننت أن العالم مجرد حلم مشفر، وأني صياد رموز، لكنه بحاجة إلى شبكة صيد ومختبر. لقد خدعتني الكتب قبل أن تخدعني موسوعة الحشرات البشرية. وأخيراً تهاوى الحلم الذي دمرت من أجله حياتي. الآن صار لدي حطامان: حياتي والحلم. أنا أحبك ، يا أمي. وأصلي من أجل أن يتوقف الله عن تعذيبك بالحزن الشعبي الأسود، وأن يحكم البلاد ملاك ذو مؤخرة جميلة. كان الطبيب قبل أن يحرق باص الأطفال، يعالج كآبتي مرة، وفي أخرى كان يعالج ذهني العدائي المثير للمشاكل. أنا يا أمي لا أنام. هم يريدون تنويمي عنوة. وأنتم يا أخوتي، أعلن لكم بأني من صنف المرضى المذعورين، من صنف الفئران الكافكوية، سلالة مطاردة إلى الأبد. نأكل بسرعة وخوف، ننام بعيون نصف مغمضة، وأبطال كوابيسنا قطط

شريرة ومصائد من أسلاك شائكة. لعلمكم ليس هذا المرض معدياً بل وراثياً. قبل ظهور كافكا كانوا يسمون أسلافنا بمواطن الشر. أرسلوهم إلى المعابد لطرد الشياطين من رؤوسهم .

زوجتي وأصدقائي ورئيس جمعية الدفاع عن المنحوسين. يصلون كلهم كي أنام، وأقبل قسمتي في الحياة. هم محقون إذا شعروا بأنهم أصحاب امتياز. فالنائمون هم ملوك يولدون في النهار، معافون هادئون خارج المستشفى، ولا يعرفون صراخ الولادة. أنا أحسدهم على مثل هذه الطمأنينة وطيبة القلب. أما أنا فيمكن نعتي بعديم الثقة، على وزن عديم الأخلاق... فأنا عاجز عن أن أسلم روحي لطلوع النهار خلسة، ومن دون حراسة. أنا عديم الأيمان أيضاً. وأنوي الإعلان عن معركة جديدة مع الصيدلية. لهذا لن أزور الطبيب بعد اليوم. المشكلة أنهم يمنعونك من شرب الكحول حين تتناول حبوبهم، بنات الكيمياء، ومبيدات الحشرات التي يقدمونها لك، ومعها ابتسامة عريضة. الممرضة اعطتني رقم هاتف إطفائيي الانتحار أيضاً. وهل تظنون أنني أمزح، أو لم تسمعوا من قبل بهذه المهنة؟ قالت الممرضة بالحرف الواحد: يمكنك أن تتصل بهذا الرقم، إذا شعرت بأنك مقدم على فعل خطر. هم سيأتون في الحال. لم أصدق حين سمعت بأن هناك سيارة إسعاف لإنقاذ المنتحرين.

لكن هل هو إنقاذ أم فضول لمعرفة قصص التجارب الفاشلة. فأي منتحر يضع رأسه في الإنشوطة، ثم يخرج من جيبه هاتفه الخلوي، و يتلفن إلى الإسعاف... أوكيه... أوكيه ... أوكيه... أنا موافق على زيارة الطبيب، لكن بشروط :

أن يأتي بأجوبة أخرى غير التي أعرفها. أريد أجوبة مقنعة عن أزمتي حين أدور فجراً في الشوارع. أريد أن اسأل الطبيب عن تلك الرغبة الدينية الغامضة التي تخضني في مثل هذه الساعة الصباحية المباركة.

شكراً لك سيدتي. هاتي رقم هاتف جماعتك. عيناك جميلتان، وهذه الزهرة الجميلة. أقصد حلقة الأذن. هل هي نرجس؟

كنت أقول للطبيب، قبل أن يقطع إلى نصفين، ويحرق بسيارته الأطفال:

ـــ دكتور! هل تعرف أني حين أخرج من البيت، ويلامس وجهي الهواء البارد، تفيق تلك الرغبة. مياه دافئة تصعد من ينابيع مجهولة إلى رأسي. أفقد ثقل جسدي، ثم أشعر أنني صرت غيمة بوذية. كيف أوضح لك الأمر. انظر، هو ذا طائر نورس، يخطف من مجموعة عصافير، قطعة خبز صغيرة، ويصعد بها إلى سطح محطة القطار ...

ـــ دكتور...! أستطيع أن أسمي مشاعري حينها بالرغبة في التقبيل. أن أقف مثل موزعي الصحف المجانية والإعلانات أمام باب المحطة، وأعترض طريق الناس المسرعين. أن أستوقف الناس لتقبيل أياديهم، أحذيتهم، ركبهم، حقائبهم. ولو سمحوا لي أن أعرّي مؤخراتهم لدقائق، ولقبلتها. اسمحي لي سيدتي أن أقبل كم معطفك...أرجوك سيدي تقبل مني هذه القبلة، في ربطة عنقك. قبلات من دون مقابل، قبلات حزينة ومخلصة. ولمرات كثيرة يا دكتور، لا أريد تقبيل الناس فقط، بل آثارهم على الأرصفة: قبلات لأعقاب السجائر، لمفتاح فقدته عجوز، لقناني البيرة التي خلفها السكارى ليلة أمس، لأرقام في وصولات مهملة. قبلات تمتزج فيها غريزة الأمومة بالشبق. مثلما يمتزج الليل بالنهار في رأسي ...

ـــ دكتور! ثم تنقشع فجأة هذه الرغبات تماماً كما يحصل لسماء صافية اقتحمتها عصابة من الغيوم البدينة الوقحة. شيء ما شبيه بالتعذيب يحدث لي كما لو أن سجاناً وحشياً يقلع أظافري. أشعر يا دكتور أن فكي صار فك حيوان، وذيلاً نبت في مؤخرتي. الرعب يا دكتور يعربد في حنجرتي التي جفت وتبحث عن قطرة ماء وأيّاً كان الثمن، حتى لو كان شرف الإنسانية. الظمأ والكره يختلطان في رأسي الذي صار بوقاً ينفخ أناشيد سادية. لذا أريد هذه المرة استرداد قبلاتي المجانية تلك. أريد أن أقطع خصيتيّ ذاك الرجل المسرع الذي يشعل سيجارته عند باب المحطة. أريد أن أغرز أظافري في وجه ذاك الطفل الذي تدفعه أمه صوب محطة المسافرين. طفل يعلمونه السفر والرعب. طفل آخر يا دكتور. فارزة أرق أخرى بين الليل والنهار ...

ـــ دكتور! أنا ولدت في بغداد. جدي فلاح جاء إلى المدينة. جدي كان يظن أن الشوارع هي ممرات مائية في أهوار الجنوب. صدمته سيارة ومات. أبي ظل جندياً إلى أن رحل بالسكتة الدماغية. وأمي لم تكن تقرأ وتكتب. أمي تلطم في الحرب والسلم. وأنا كنت أجلس في ظهيرة تموز اقرأ في مطر السياب. أخوتي صاروا شرطة، ومساجين، ومصلين. إذن من المفروض (حسب شروط الأصالة) أن أكتب رواية واقعية عن سيرة الماء، واللطم، وأحفاد علي بن أبي طالب. أن أخصص وقتي لدراسة التراث،

لفهم مساعي القمل الذي يهرش فروة رأسي. جدي جاء إلى المدينة ليحمل صورة الزعيم. جدي الذي هرب من الجوع والبعوض.

ــ دكتور ... أنت تعرف أن هناك نوعين من السموم. الطبيعي والمصّنع. وهي ُتصنف حسب مصادرها أو طبيعتها الكيمياوية. منها التي تسمى الكاوية، وأخرى المهيجة، وهناك سم الأعصاب، وسم الدم. الكاوية تتلف الأنسجة مباشرة. والمهيجة تحرق الأغشية المخاطية. سم الدم يمنع وصول الأوكسجين إلى الدم. كما أعرف أن السموم تصل الجسم عادة عن طريق البلع، أو الاستنشاق، أو اللسع، أو المص. الدفلة الحمراء، وعين الديك، والخروع، والداثورة، واللحلاح، والشوكران هي أنواع من النباتات والأعشاب السامة. أما اللسع واللدغ فهو من اختصاص العقارب، والأفاعي، والسمك اللساع، والسمندر، وبعض الضفادع، مثل ضفدع الطين. ومن أهم أعراض التسمم، وهي تختلف فيما بينها حسب زمن مكوث السم في الجسد، انبعاث رائحة في الفم تشبه رائحة الكحول. أنت يا دكتور تعرف أحسن. لكن اسمح لي أن أكمل كلامي. أنا ولدت بهذه العاهة، رائحة تفوح من فمي منذ الطفولة، وهي هذا اللسان العفن والسليط .أما الأعراض الأخرى التي جاءتني بها حياتي، فهي اتساع وانقباض حدقة العين، حرقة في الحلق. غثيان، وقيء، وإسهال، وتشنجات، وهذيان، وازرقاق في الجلد، وخلل في مشاعر الحب، وإغماء، أو نوم عميق كما السبات أو إضراب بدني. وفي حالة التسمم بدواء يمكن شوي تفاحة وتناولها إلى حين أخذ المسموم إلى المستشفى. لكن خل التفاح يستخدم ضد التسمم بسمكة متعفنة، أو الفسيخ، أو الساردين المعلب، ويكون شربه بعد إفراغ المعدة بالتقيؤ، ولا داعي للفزع من لسعة نحلة أو بعوضة. ُننزع الإبرة، ويدلك مكان اللسعة بالثوم، أو ورق الكراث، أو الحبقل. اما لسعة الإنسان لأخيه الإنسان فهي بالتأكيد نهاية مؤسفة، نواسي فيها المصاب المحتضر. ولا حاجة حينها إلى أشياء كثيرة، بل مجرد إشعال شمعة صغيرة، لطرد الشياطين التي تتهيأ لنهش جسد الميت. أو الإسراع بالنفخ في فم المحتضر. وهذا يعينه في تلك اللحظات على اكتشاف الركام الهائل من الأوهام التي عاشها.

ــ دكتور! أجلس في المقهى ساعات وساعات، حتى تؤلمني مؤخرتي. الفتاة التي تنحني فوق أوراقها وتكتب، خرجت لتدخن سيجارة في باب المقهى. سقط القلم أثناء نهوضها. أحببت القلم بكل نقاء وإخلاص. قلم يرقد غاضباً قرب ساق الكرسي. قلم فتاة جميلة ذهبت لتدخن سيجارة، يرقد وحيداً كارهاً حياته القصيرة. كل حركة يا دكتور، كل أشارة مهما كانت بسيطة أو تافهة تسبب لي صداع الحب. لذا أحاول أن أبدو كحاقد بالغريزة. لكن ما معنى ذلك؟ لا أدري. لدي، كما ترى، حركات مدمن على

الكحول الذي كف عن أن يجلب له المسرة. ألا تلاحظ ذلك! تخجلني فكرة تسرب قصص حبي الصغيرة هذه إلى الآخرين. مرة أخبرت صديقاً بأني أفكر بأزرار قميص شخص يجلس في المقهى، وأكثر مما أفكر في حروب البلاد. لم أكن أتظاهر بقول الشعر أو بالجنون. لكن نظرته إليّ تشبه الشتيمة .

ــ دكتور! أكيد أنك لم تسمع بقصة السمكة المسمومة. هل تظن أنني مجنون أحدثك عن السموم من دون سبب. في بداية سنوات الحصار الاقتصادي، في سنة 1991، انتشرت في بلادنا قصة الأب والسمكة. كان قد أشترى سمكة كبيرة مع بعض الخضار والطرشي. شوى السمكة بنفسه. وأعد السلطات. ثم أكل مع بناته الست بعيون دامعة وقلب مرتجف. بالطبع لم تعرف بناته أن الأب قد سمم السمكة. لم يجد الرجل حلاً آخر كي لا تصبح البنات بغايا. كان يبيع الأكياس البلاستيكية في السوق. وما كان يكسبه لم يكف للعيش. رحل وهو موقن من أن زوجته الراقدة في مقبرة النجف ستفهم. شأن ناس كثيرين لم يردوا أن يسموا تلك جريمة. أما أنا فكنت أفكر في أحلام اليقظة ــ أحلام بنات الرجل وهن يأكلن سمكة أبيهن اللذيذة. لا أدري أن كان للآخرين أحلام يقظة حين يأكلون بصمت. أنا أعرف أن لا وقت محدد لأحلام اليقظة، وهذه هي ميزتها على أحلام النوم الخاضعة للنظام لكن ليس الديمقراطي. إنها من امتيازات جمهورية أحلام اليقظة. كانت قصة الرجل نذيراً أفزع الناس في سنوات الحصار الأولى. لم يكن مسموماً ذيل السمكة الذي تجمع فوقه الذباب في حاوية الزبل. أخذته قطة سمينة، وأطعمت به صغارها، على سطح تلك الدار. كم أتمنى أن تكون هناك مثل هذه القطة حقاً. كل مأساة لا تتخللها تفاصيل مخترعة بطريقة مبالغ فيها وبكائية، لا تستحق أن تمثل على خشبة مسرح التراجيديات الكبرى. والآن يا دكتور هل فهمت قصدي؟ ذيل السمكة هو فارزة أخرى. هناك فارزة شوكية في دماغي تمنعني من النوم. أنت محق. لك يا دكتور! الكلام الآن. الناس لم يتكلموا آنذاك عن نوع السم في السمكة، بل تحدثوا طويلاً عن قضية الجوع وشرف البنات ...

ــ دكتور .. تريد القول إن بمكنة العالم أن يكون أبيض مثل قميصك. أوكيه، دكتور. وإن الإنسان فارزة بين كلمتي ولادة وموت. لكني استحلفك بشرف مهنتك الإنسانية، أن تخبرني بمعنى هذه الجملة البيضاء الفارغة، وهل أن الفارزة ضرورية إلى هذا الحد؟

ــ دكتور! فارزة أخرى من فضلك. اسمح لي أن اذهب إلى الحمام. سأحدثك يا دكتور حين أعود عن فارزة أخرى أسمها: الوحشة. لكن دعني الآن أفرغ أمعائي. أشعر أنني شربت برميلاً من الوحل ...

ـــ دكتور .... هل تعرف أن أنواعاً من الفئران تبدأ بقضم ذيلها حين تجوع. والفأرة الأهم التي عرفتها وأعانتني في أن أتنبئ بمصيري هي فأرة كافكا. هل قرأتها يا دكتور، باللغة الفنلندية؟ كيف سأترجمها لك. هي من سموم كافكا القصيرة جداً وعنوانها حكاية صغيرة:

قالت الفأرة، يا للأسف! يزداد العالم ضيقاً كل يوم. كان كبيراً من قبل حتى أني خفت، وركضت، ركضت، وسررت حين رأيت أخيراً، الجدران تظهر في الأفق من كل جهة، غير أن هذه الجدران الطويلة تركض سريعاً كي يلتقي بعضها ببعض، وإذا بي في آخر غرفة، كما أني أرى هناك مصيدة سوف أسقط فيها .

(كان عليك أن تبدلي الاتجاه)

قال لها القط وهو يمزقها .

ـــ شكرا دكتور ...

ـــ والآن يا دكتور! أخرجني من كرة الروث، أرجوك.

تلك الابتسامة المشؤومة

قفز إلى ذهنه قول (ينبغي حماية الجسد وليس الأفكار)*، وهو جالس على مقعد مرحاض في أحد المطاعم الصينية. حدسَ أن ذهنه يريد حل اللغز: لماذا تلك الابتسامة اللعينة حين استيقظ صباحاً. خرج من التواليت وطلب قدح شاي أخضر. كان قد غادر البيت مبكراً قبل نهوض زوجته وابنته. من المطعم بعث إلى الزوجة رسالة هاتفية كتب فيها أنه خرج للتمشي قليلاً، وسيعود بعد ساعة. هاهي الساعة تنقضي. تذكر أنها طلبت منه بالأمس أن يشتري في يوم الاثنين مكنسة كهربائية جديدة. انتبه أثناء ذلك إلى عجوزين جالستين في زاوية من المطعم، تحلان معاً كلمات متقاطعة في جريدة. إحداهما تمسك القلم، والثانية تفكر واضعة أصبعها على أنفها. البارحة تعطلت المكنسة الكهربائية أثناء تنظيفه غرفة الصغيرة. شاهد الآن انعكاس ابتسامته في قدح الشاي، والتي صارت بلون أخضر. أخذ يفكر بقضية الأفكار والجسد وهو يراقب المرأتين. كان قد شاهد، قبل دخوله المطعم، مجموعة من الأطفال يقفون عند أشارة المرور منتظرين الضوء الأخضر. وقفوا في صفين، وكانت هنالك معلمتان. واحدة في المقدمة و أخرى في المؤخرة . خمن عدد الصغار: 12 تلميذاً من فصيل الأمل القادم – حرك ذهنه ذيله فرحاً. سوف لن يكونوا سوى أطباء، ومهندسين، وقتلة، وشعراء، وكحولين، وعاطلين عن العمل. أثنا عشر طفلاً هما الغلاف الجديد لحكاية قديمة. تقدم ذهنه ببطء وأخذ يشم جيفة ميت. هؤلاء هم أبناؤنا وزوار قبورنا– قال. إثنتا عشرة فكرة تعبر الشارع مرحة ًنشطة. إنهم طاحونة المستقبل. نهض وتوجه إلى الحمام مرة أخرى. غسل وجهه للمرة العاشرة لكن الابتسامة مازالت عالقة فيه. لو لم يكن قد تعرض من قبل إلى نكبات فنطازية، لقال وهو يحدق في المرآة كأي رجل عاقل: غير معقول! لكنه اعتاد على المفاجئات، وعملته تجاربه عدم إضاعة الوقت في البحث عن أسباب مآزقه، بل البحث عن مخرج الطوارئ. خمن ذهنه أن الابتسامة كانت قد انتقلت إلى الرجل من حلم سابق. كان حلماً سينمائياً ساذجاً لا صلة له بذاكرته أبداً: قبّلها من شفتيها. حاول صعود السلم لكنه جلس عند أوله. ابتسم وأسند رأسه إلى الجدار. نظفت أسنانها في المطبخ. نادته بصوت مرتفع كي يأتي بشرشف السرير. أرادت أن تغسله. لكنه كان ينزل حينها إلى بئر مثل ريشة تترنح في الهواء. كان بعيداً عن الضوء، ميتاً لم

يسمع نداءها الأخير. المرأة ماتت بعد حادثة السلم، بأربع سنوات. وجدوها نائمة على مائدة المطبخ وفي يدها عود تنظيف الأسنان، وعليه قطعة لحم بحجم نملة .

هل نقول إن أشعة الشمس كانت تدخل من النافذة، أم أن المطر كان يضرب زجاج النافذة، بعد أن نظفت المرأة أسنانها جيداً. الحلم نفسه يتكرر كل ليلة. هناك حاجة إلى شيء من تلك الموسيقى الكلاسيكية. أين اختفت حكايات الموت الصغيرة تلك. يا لها من سذاجة أبدية في قصص موتنا الجميل . تلك القصص الصغيرة المدببة، مثل عود تنظيف الأسنان. لم ابتكرنا كل هذه الأشكال المعقدة لحكايات الجثة. كان ظل عملاق يطرح هذه الأسئلة على الرجل في الحلم .

في الصباح أفاق الرجل مبتسماً. رأى بعدها ابتسامته في المرآة. يبدو أنها ظلت عالقة بعد الحلم. قال مرة في حوار غير مألوف مع أحد أعضاء جمعية الدفاع عن المنحوسين :

ـــ لم أرد أن تراني زوجتي وابنتي وأنا أبتسم بغباء، ومن دون سبب. كانت ابتسامة تافهة. كانت عريضة لكنها لم تكشف عن أسناني المهشمة. كانت شفتاي مضمومتين مثل شفتي المهرج. دعكت وجهي بالماء والصابون، لكن الابتسامة ظلت عالقة. غسلت أسناني ثلاث مرات، لكنها ظلت ملتصقة مثل حبر ثابت. فكرت: قد تزول مع مطلع النهار، وكما يذوب الثلج في صباح مشمس. لا أدري كيف خطرت ببالي مثل هذه الأفكار. ثم فجأة شعرت بحر شديد، رغم أن الفصل كان شتاء. ارتديت قميصاً رياضياً خفيفاً، كان مرسوماً على ظهره غراب أسود يقف على كرة للعبة السلة، رسمت عليها خارطة العالم. ارتديت سروال جينز نظيفاً، ثم معطفي الشتوي الأسود، وعقدت العزم على حل لغز تلك الابتسامة. الزوجة والبنت تحملتا الكثير. خوفي عليهما من الجنون، فكوارثي متواصلة في هذا العالم. أنا لست منحوساً، إذن كفوا عن لصق هذا النعت السخيف بي .

كان الثلج يهبط متراقصاً. كان رائعاً وجميلاً. لأول مرة كانت السماء بمثل هذا السخاء، حين تخلت لي عن كل هذه الجواهر.أحاسيس مثل هذه كنت قد عرفتها من قبل. تستفيق وتشم صباحاً ثم تفكر:

الحياة مازالت تلائمني.

إنها لحظات حزن مقنعة، تتخفى في أثواب وروائح شتى. أنت تسكر، فتبكي. وتظن أنك أزحت حجراً كبيراً، كان يسد مجاري يومك الذي كان قد انقضى بضربة موجعة. مرّ بقربي رجل لا أعرفه يرتدي معطفاً شتوياً ثقيلاً، ويلفُّ رقبته بوشاح صوفيّ، وعلى رأسه قبعة سوداء تكوّمت فوقها ندف الثلج. ظل ينظر ويلتفت مبتسماً إلي عندما سار في الاتجاه المعاكس. أردت أن أبادله الابتسامة. مررت أصابعي على شفتي. إذن لم أكن بحاجة إلى ابتسامة جديدة. اكتفيت بالالتفات إليه بسرعة، لأقدم له بالمقابل ابتسامتي الحلمية تلك .

دخلت إلى مطعم صيني لاحتساء الشاي، والتأكد في المرآة من الابتسامة. شاهدت عجوزين سحاقيتين تحلان الكلمات المتقاطعة. وأرسلت إلى زوجتي رسالة ثانية عبر هاتفي أخبرها، بأنني سأتأخر قليلاً في العودة، وسأذهب مباشرة إلى الأسواق لشراء المكنسة الكهربائية. كان علي أن أعثر على حلٍّ، للغز الابتسامة اللعينة. فكرت في الذهاب إلى المستشفى. ربما أنا مريض، وما الابتسامة إلا جرس إنذار. لكن بدل ذلك وجدت نفسي داخل دار السينما وأقطع تذكرة. كنت أشعر بحمى مقرفة تنتشر في الجسم. كانت هناك فتيات تحت ملصق كبير لفيلم الأسبوع المقبل. أبرز ما فيه أنياب دراكولا، والدم الذي يقطر من زاويتي فمه. كانت هناك ابتسامة على وجه هذا الوحش. الفتيات جلسن كما لو أنهن في الصف الدراسي. كلهن ألقين عليّ نظرات جامدة، يشوبها شيء من الخوف. ابتسمن بعدها على التوالي من اليمين إلى اليسار. كنت أجلس أمامهن. أدرت لهن ظهري، بعد أن خلعت معطفي، كي يشاهدن بوضوح كرة السلة والغراب. لا تسألني لم فعلت ذلك. هل لديك أنت جواب على الابتسامة اللعينة هذه؟ أردت أن أكون ودوداً مع الفتيات، وأخذت أكتفي بهز رأسي لهن على التوالي من اليسار إلى اليمين. ثم تأكدت في مرايا صالة الانتظار من ملامح وجهي. أعترف باني كنت قانعاً إلى حد ما بابتسامتي الجديدة هذه. على الأقل لست مرغماً كالآخرين على شدّ عضلات الوجه من أجل الابتسام. نسيت أن أقول لك أن إحدى العجوزين المثليتين، قالت لي بأن احتفظ بهذه الابتسامة الجميلة، فالفنلنديون في الشتاء متجهمون، وملامحهم كئيبة، تزيد من عتمة الشتاء ووحشته .

كان فيلماً بكائياً مقرفاً متسارع الإيقاع. أحرقت البطلة بيتها على زوجها وأطفالها. وهي تصرخ الآن وتنحب مثل مجنونة أمام النيران، والجيران حولها يضعون أصابعهم على أفواههم كأنهم على وشك التقيؤ. السيدة الأنيقة التي تجلس قربي كان وجهها غارقاً بالدموع. التفتت ببطء صوبي، ثم تمتمت بهلع:

خنزير!

ألتفتُ إليها وأنا غير مصدّق، ثم التفتت، لكن هذه المرة بوقاحة، وهي غارقة بدموعها التي شوّهت ماكياجها.أخذت تنقل بصرها مثل المخبولة بين مصيبة بطلة الفيلم وبين وجهي البشوش. كان يبدو أنها مشمئزة تريد أن تصفعني بسبب ابتسامتي. أردت أن اشرح لها الأمر:

أنا لا أبتسم على ما حصل للمرأة وبيتها، سيدتي! (رغم أنها قحبة مثلك) أنا أفقت اليوم، وهذه الابتسامة قد فرضت عليّ!

تجاهلت المرأة، وحاولت التظاهر بالشفقة على حال امرأة الفيلم التي أخذت مسدساً من حزامها، وأطلقت النار على رأسها، وسط جموع الناس الذين سرعان ما تفرقوا، عندما وصلت سيارات الإطفاء .

حين أضيئت أنوار الصالة، نهضت السيدة الأنيقة وشتمتني هذه المرة بصوت عال:

حيوان، ابن عاهرة !

التفت الجمهور ناحيتنا. لكنهم لم يفعلوا شيئاً سوى أنهم ظلوا يبتسمون، وهم يحدقون في وجهي. هل يبتسمون من الشتيمة، أم من الغراب فوق الكرة، أم لأنني جابهت شتائم المرأة بابتسامتي الباردة؟ لابد من التخلص بأسرع ما يمكن من هذه الابتسامة. اتصلت بي زوجتي، لكني كذبت حين قلت لها بأنني ما زلت ابحث عن مكنسة كهربائية مناسبة .

استمر الثلج بالهطول، وزاد من تألقه، حين هبت ريح خفيفة، وتركته يهطل منحرفاً. شعرت بالخوف والارتباك عندما تصورت أن هذه الابتسامة قد تظهر أثناء وقوع إحدى المصائب. ماذا لو دهست حافلة ًأحدهم الآن، وخرجت مصارينه من مؤخرته. أكيد سيكون هناك جمهور مرعوب. ماذا لو انتبهوا إلى ابتسامتي وأنا أشاركهم هذه الفرجة المجانية. من دون شك سيشبعونني ضرباً. كيف سأشرح لهم أن لا علاقة لابتسامتي بما حدث. أو من سيحتمل أن تبتسم في وجهه مثلاً، وطفله الرضيع بين يديه يموت جوعاً. يمكنك أن تفسر له بهدوء بأنك تبتسم ساخراً من الحياة التي أخرجت هذا الطفل من دون سبب، ولتأخذه برفسة في المعدة، ومن دون سبب أيضاً. لكن ألا يطعنك أب الطفل وأمه بالسكين ويمزقان هذا الحيوان غليظ القلب. هرولت باتجاه بار قريب. ينبغي حماية الجسد وليس الأفكار. إن تفقد السيطرة على التحكم بالإيماءات الجماعية المتوارثة التي توحدنا في الفزع والسعادة!!

شعرت بمغص في المعدة حين دخلت البار الذي كان مزدحماً بصورة مريبة. الفنلنديون مبكرون جداً في كرع الكحول. دخولي إلى البار صار حفلة من الابتسامات، لكنها تبددت تدريجياً، وتحولت إلى ضحكات وتعليقات متفرقة، كانت بالأحرى شتائم سريعة. لم أفهم، أول الأمر، سبب تردد النادل عندما طلبت بيرة. قال بعدها:

عليك أن تحتسي بيرتك بسرعة وتنصرف.

التفت بدوري ناحية الزبائن غاضباً، على مثل هذا الاستقبال غير الودي.

أي بار هذا ؟ قلتها بصوت عال.

لكنني كما تعرفون كنت أبتسم رغماً عني. ربما أصابهم الظن باني مجرد حيوان أليف تجاوز حصته المقررة. كان هناك أربعة شبان حليقو الرؤوس، ارتدوا المعاطف الجلدية السوداء. عندها فقط، أدركت حينها أنه بار للنازيين الجدد. كانوا يسخرون من جرأتي أو حماقتي. كانوا يلتفتون ناحيتي بين كأس

وأخرى، مطلقين النكات والشتائم القبيحة. ثم وقف أحدهم وأخرج قضيبه، ولوح به في وجهي. ثم أنفجر الجميع بالضحك ومعهم النادل.

فكرت بأن أتمالك نفسي، أشرب البيرة سريعاً، ثم أهرب من هذه المصيدة القذرة. لكني كنت غبياً: تصنعت الشجاعة واللامبالاة. جلست هناك وكأنني قبطان يبتسم في سفينته. لكن النادل، ابن القحبة هذا، طلب مني مغادرة المكان فوراً خشية المشاكل. بالطبع سررت لهذا الطرد. وهكذا تركت بار النازيين مثل فأر مفزوع.

اليوم هو الأحد، وأنا كنت أظنه يوم الاثنين. تذكرت ذلك أخيراً، وفكرت بأن زوجتي غاضبة حين كانت تسمعني، وتقرأ رسائلي الهاتفية. أي أسواق هذه التي تفتح أبوابها يوم الأحد. والآن أية كذبة أخرى يمكن أن اختلق للتستر على كذبتي الأولى. فكرت أن أعود إلى البيت، وأعترف لزوجتي بكل شيء. ستكون الابتسامة الدليل على صدقي. لكن مشاعري كانت متضاربة. بعدها دخلت إلى دكان صغير، واشتريت ست زجاجات بيرة، وذهبت إلى الحديقة العامة. هل أنا سيء الحظ حقاً، أم أنني خلقت عن طريق الخطأ .

كانت الشوارع فارغة. والريح تعبث بالأشياء، تزحزحها، وتحدث ضجيجاً.

قلبت الريح لافتة أسعار كانت مركونة قرب مطعم مغلق. ثم جاءت بعلبة كارتونية كبيرة كانت تتطاير كأنها نصف جسد ممزق. كانت هناك علب سجائر فارغة تتراكض. دندنتُ لاشعورياً بلحن. أردت الغناء لكني لم أعرف أي أغنية سأختار. لم تكن في رأسي أية كلمات لأية أغنية. داهمني فزع خفيف: هل شُفطت كلمات الأغاني من ذاكرتي إلى هذه الدرجة. لم أقدر إلا على ابتكار بعض الألحان الصغيرة. واصلت الدندنة على أمل أن أعثر على كلمة بعد قليل. لكن دموعاً غبية نزلت بدل الكلمات. جاءت الريح بكيس أبيض فارغ مر سريعاً قرب أذني وأطفأ اللحن. لقد أفزعني. دار الكيس حول نفسه عند تقاطع الشارع وكأنه يريد أن يحدد الاتجاه الذي سينطلق فيه. أرتفع قليلاً حائراً ثم هبط مترنحاً على الإسفلت. سحلته الريح رغماً عنه هذه المرة، وتركته قرب النفايات التي تجمعت عند فوهة بالوعة الشارع .

وصلت إلى الحديقة مفكراً بالكذبة على زوجتي. أكيد أنها واثقة بأنني على موعد مع امرأة. هي تغلي الآن غضباً، وتحشر ملابسي في حقيبة، استعداداً لطردي .

خيل لي أول الأمر، وأنا أنظر من خلال الأشجار الكثيفة، بأن الريح قد حملت أكياساً سوداء أخرى. لكنها في الحقيقة حملت أولئك الشبان الأربعة حليقي الرؤوس. بغريزة حيوانية شعرت بالخطر. شممت

روائحهم حين اقتربوا مني، وقفت أنا من دون سبب للتبول، خلف شجرة عملاقة. أحاطني اثنان من اليمين و آخران من اليسار. بدوا كأنهم الملائكة الحراس. أخرجوا عتلاتهم وتبولوا بشدة جميعاً مثل حمير لم تتبول منذ سنوات. كانوا يتبولون وهم يرمقونني بنظرة جامدة، وساخرة بسبب قضيبي الذي لم تنزل منه قطرة واحدة، من شدة الخوف. كنت فريسة سهلة وجبانة. كان ضجيج بولهم المتدفق بجنون، يملأ وحده المكان، مثل شلال يهدر في العتمة، بعدها هدأت الريح، أو أنها تواطأت لفسح المجال أمام معزوفة البول وروائحه، التي كانت تصعد إلى دماغي مثل غازات الأعصاب السامة ، أو لعل الريح كانت تشتهي أن تهب السماء فرجة مجانية .

انتهى كل شيء بسرعة خاطفة. بالوا دفعة واحدة كل غرائز الحيوان الممكنة في دقائق معدودات وأشبعوني ضرباً. ثم ركضوا وكأن الريح حملتهم وأخفتهم بين طيات ثوبها الوقور، ثم عادت للعمل بعد أن أدى الشباب مهمتهم على خير وجه.

كنت أنزف من أذني، ومنخريّ، وأسناني، وعيني، ومن منخري روحي المسدودين أيضاً. حاولت النهوض. تمنيت لو أن هذه الريح العبدة بطاعتها العمياء وولائها للسماء، أن تحملني أنا الآخر. لكنها لم تفعل. كانت تحمل كل شيء عدا جسدي الفارغ الذي ظل ينزف قرب الشجرة كما لو أن ما حدث كان من رواية هزلية مليئة بالمآزق التافهة. شاهدت أكياساً فارغة من كل لون و شكل. كانت تحلق فوقي بسرعة جنونية وكأنها تقدم لي عرضاً خاصاً من بقايا العظام، والأزمان، والأماكن.

كما بدا لم تكن راضية عني، ونافخها أيضاً. مر كيس رصاصي اللون ممزق، عرفت أنه عباءة أمي. مر دماغ محترق لكن بأجنحة عملاقة. مر سرب من الأسماك حاملاً فُتاتاً من لحم بنت صغيرة . مرت أفاعي الحصار الطائرة ملتفة حول طعامها من البشر والأحلام. مرت جميع ألبسة زوجتي الداخلية وكان أحدها يقطر دماً، و الآخر منياً، والذي يليه حبراً، وهكذا. مرت دفاتري القديمة تصفق بأغلفتها. عقارب في زجاجة مرت. قمصاني الصيفية. الأدوية الفاسدة، وعلب حليب الأطفال. الخبز مر بجناحين من خراء. مرت قصائد وهي تتبول على نفسها مثل أطفال معوقين. مع كلابهم الوحشية مرّ الجنود، حراس الحدود التي عبرتها مشياً. أخي الأحول يلبس عمامة الأمام. مرت أصابعي مقطوعة ومدماة. مرت ابنتي مريم في عربة أطفال، وهي ممسوخة من فرط حبي لها. مرت زوجتي وهي تعزف على بوق يخرج صوتاً كطائر البوم .

مرت حياتي ورقةً، ورقة. مرت مآزقي ورقةً، ورقة. ولم ينته مرورهما حتى بعد أن أغمضت عيني. كان قد هيمن علي الألم والدوار. ومرت الأوراق في العتمة بيضاء ورقةً، ورقة .

في المساء كان الرجل يتمدد فوق السرير في المستشفى، وهو يبتسم لزوجته وابنته التي كانت تحمل زهوراً جميلة .

-لماذا تبتسم هكذا يا أبي؟

سألته مريم بدهشة .

....

*من أقوال ألبير كامي .

أغنية الماعز

كان الناس ينتظرون في طوابير، ليرووا حكاياتهم. تدخلت الشرطة لتنظيم الأمور. أغلق الشارع العام المحاذي لمبنى الأذاعة أمام حركة السيارات. وهناك أنتشر النشالون وباعة السجائر المتجولون. وكانت شديدة ً المخاوفُ من أن يندس إرهابي بين الناس ويحيل كل هذه الحكايات الى عجينة من اللحم والنار.

تأسس راديو (الذاكرة) بعد سقوط الدكتاتور. ومنذ البدء أخذت الأدارة بنهج وثائقي لبرامجها. لا نشرة أخبار ولا أغان، مجرد تقارير وثائقية وبرامج تنبش في ماضي البلاد. وجاءت الراديو شهرة كبيرة بعد الأعلان عن خبر تسجيل برنامج جديد بعنوان (حكاياتهم بأصواتهم). وتوافدت الحشود على بناية الأذاعة من كل أنحاء البلاد. كانت الفكرة بسيطة : أختيار حكايات و تسجيلها بأصوات أصحابها ومن دون ذكر للأسماء الحقيقية ثم يختار المستمعون أفضل ثلاث حكايات تنتظرها جائزة مالية ثمينة.

أفلحتُ في ملء إستمارة الترشيح والدخول الى مبنى الاذاعة بعد مشقة كبيرة. ولأكثر من من مرة نشب الشجار بسبب الزحام. عجائز وشبان ومراهقون، موظفون وطلبة وعاطلون عن العمل ، جاءوا كلهم كي يرووا حكاياتهم. أنتظرنا تحت المطر أكثر من 4 ساعات. بعضهم كان كتوما. آخرون كانوا يتفاخرون بحكاياتهم. شاهدت رجلا من دون ذراعين ولحيته تكاد تصل الى سرته. كان غارقا في التفكير وكأنه تمثال يوناني متآكل. لاحظت قلق الشاب الوسيم الذي كان معه. سمعت من شيوعي عذِّبوه في السبعينيات في سجون البعث ، بأن لدى الرجل الملتحي حكاية مرشحة للفوز إلا أنه لم يأت من أجل الجائزة. إنه مجرد مجنون لكن مرافقه ، وهو من اقربائه، يطمع بالجائزة. كان ذو اللحية الطويلة معلما. ذهب الى الشرطة يوما للأبلاغ عن جاره الذي كان يتاجر بالآثار المسروقة من المتحف. شكرته الشرطة على تعاونه. وبهذه الصورة أراح المعلم ضميره وعاد الى مدرسته. رفعت الشرطة تقريرا لوزارة الدفاع مفاده أن بيت هذا المعلم هو وكر لتنظيم (القاعدة). كانت الشرطة شريكة لمهرب الآثار. أرسلت وزارة الدفاع تقريرها الى الجيش الامريكي الذي حلقت مروحياته في سماء بغداد و قصفت بيت المعلم. قتلت زوجته وأولاه الأربعة وأمه العجوز. المعلم نجا من الموت. لكن دماغه تعطل وفقد ذراعيه.

أما انا فكانت تغلي في ذاكرتي أكثر من عشرين حكاية عن سنوات أسري الطويلة في ايران. كنت واثقا من أن واحدة على الأقل ستكون قنبلة المسابقة حقا.

أدخلوا المجموعة الاولى ثم اعلنوا للحشود في الخارج عن انتهاء استقبال الطلبات في ذلك اليوم. كنا أكثر من 70 شخصا. أجلسونا في قاعة فسيحة تشبه مطاعم الطلبة في الكليات. أخبرنا رجل يرتدي بدلة أنيقة بأننا سنستمع أولا الى حكايتين كي نتعرف على طبيعة البرنامج. كما تكلم عن قانونية العقد الذي سنوقعه مع الاذاعة.

خفتت الأضاءة تدريجيا وحل الصمت في القاعة وكأننا في صالة سينما. أشعل معظم المشاركين سجائرهم. غرقنا في سحابة كثيفة من الدخان وأخذنا نستمع الى قصة امرأة شابة. كان صوتها يصلنا صافيا من كل أركان القاعة. استمعنا الى حكاية زوجها الشرطي الذي أختطفته جماعة اسلامية لمدة طويلة، وكيف أرجع القتلة جثته متعفنة ومن دون رأس أثناء الاقتتال الطائفي. وحين أضيئت القاعة من جديد دبت الفوضى. كان الجميع يتحدثون سوية مثل حشد من الزنابير. هزأ كثيرون من حكاية المرأة. أدعوا أنهم يملكون من الحكايات ماهو أغرب وأقسى وأكثر جنونا. لمحت عجوزا شارفت على التسعين تهز يدها ساخرة وهي تمتم : هي هاي سالفة .. سالفتي لو حكيتها على الصخر.. .كان تفطر من القهر ...

عاد الرجل الأنيق ودعا المشاركين الى الهدوء. أوضح بكلمات بسيطة بأن أفضل القصص لاتعني الأكثر رعبا أو حزنا، المهم هو الصدق وأسلوب الحكي ثم قال بأنه ليس من الضروري أن تكون القصص عن الحرب والقتل. أنا إنزعجت من هذا الكلام. وما لاحظته أن غالبية المشاركين لم تكترث لأقوال هذا الرجل. همس في أذني رجل بحجم الفيل : ضراط إللي يقوله هذا أبو رباط... السالفة هيّه سالفة ... لو زينة لو ضراط ...

خفتت الأضاءة من جديد. ورحنا نصغي للحكاية الثانية :

وجدوها تطعمني الخراء. طوال أسبوع وهي تخلطه لي مع الرز والبطاطا المهروسة والحساء. كنت طفلا شاحبا في الثالثة من العمر. هددها أبي بالطلاق لكنها لم تكترث. تحجر قلبها الى الأبد. لم تغفر لي فعلتي أبدا، ولا أنا نسيت قسوتها. عندما ماتت بسرطان الرحم كانت أعاصير الحياة قد حملتني بعيدا جدا. هربت بعد حادثة البراميل من البلاد ذليلا ،مكسورا، مشدوها من شدة الفزع. في الليل ودعت أبي. سار معي الى المقبرة. قرأنا سورة الفاتحة عند قبر عمي. تعانقنا ثم دس في يدي رزمة من النقود. قبلت يده وأختفيت.

كنا نعيش في حي فقير في كركوك. لم تكن في الحي مجار للمياه. حفر الناس في بيوتهم بالوعة كلفتها ثلاثة دنانير (حفر بالوعة وليس بناء). كان الكردي نوزاد، بائع الخضروات، هو المختص الوحيد في الحي في حفر بالوعة الخراء تلك. وحين مات نوزاد تولى ابنه مصطفى العمل. عثروا على نوزاد متفحما في دكانه بعد أن شب الحريق فيه ليلا. لاأحد يعرف مالذي كان يفعله نوزاد في تلك الليلة. زعم بعضهم أنه كان يدخن الحشيش. أبي لم يصدق هذا الكلام. ولكل أشكال المصائب كانت هناك حكمته الأثيرة (كل شئ مكتوب علينا في هذه الدنيا الفانية). وهكذا صدقت في طفولتي بأن (حياتنا) مركونة في الكتب المدرسية ودكان بائع الجرائد. أراد الأب إنقاذ طفولتي بما يملكه من نقاء ومحبة. كان

ممتنا من الناس والحياة بطريقة تحيرني لغاية اليوم. كان مثل قديس في مسلخ بشري. كانت الكوارث تقصفنا مرة كل عامين. إلا أن الأب لم يرد أن يصدق بأن هناك مثل هذه اللعنة الغامضة التي يأتي الزمن بها. ربما ردها الى القدر المكتوب. كنا عرضة للقصف من كل الجهات - من المجهول ، من الواقع ، من الله ، من الناس وحتى الموتى كانوا يقصفوننا بالعذاب. حاول أبي دفن جريمتي بشتى السبل. على الأقل شطبها من ذاكرة أمي. لكنه فشل. أستسلم أخيرا. وترك المهمة لجرّافة الزمن ، فعلّها تردم الكارثة.

ربما أنا أصغر قاتل في العالم. قاتل لايتذكر شيئا من جريمته التي لم تكن لدي وعلى الاقل ، سوى حكاية. مجرد حكاية لتسلية الناس في كل وقت. وما لاحظته أن كل واحد كان يكتب ويلحن وينشد حكاية جريمتي على هواه. آنذاك لم يكن أبي يعمل في صناعة الطرشي. كان سائق دبابة. وكانت الحرب في عامها الأول. وكانت أمي تلح على أبي كي تنجب طفلا ثالثا. كان يرفض بسبب الحرب التي أفزعته. أحوالنا كانت ماشية : يرسل أبي كل شهر مايكفي للأكل واللبس وأيجار البيت. وكانت أمي تقضي وقتها اما في النوم او في زيارة زوجة عمي، للحديث عن أسعار الأقمشة ورعونة الرجال.

في الصيف تنتقل أمي الى منطقة الأحلام. لا تسمع ولا تتكلم ولا حتى تبصر. كان القيظ يذيب روحها. في كل ظهيرة تستحم ثم تنام في غرفتها عارية. مثل حورية ميتة. وحين يقدم الليل تستعيد شيئا من الحيوية تماما وكأنها أفاقت من غيبوبة. تشاهد المسلسل الدرامي في التلفزيون و برنامج تقليد الرئيس انواط الشجاعة للجنود الأبطال. وتفكر عسى أن يظهر أبي بينهم.

في ظهيرة أحد الأيام غفت أمي فاتحة ساقيها وذراعيها لهواء المروحة السقفية. تسللنا أنا وأخي الذي يصغرني بعام الى باحة البيت. لم يكن في الباحة سوى شجرة تين يتيمة وبالوعة الخراء تلك . أذكر أن أمي كانت تبكي تحت شجرة التين كلما مات لنا قريب أو نزلت علينا مصيبة. كانت فوهة البالوعة مغطاة بصينية طعام قديمة مسنودة بحجر كبير. كنا نزيحه، انا واخي، بصعوبة. ثم نبدأ برمي الحصى في البالوعة. كانت لعبتنا المفضلة. جارتنا أم علاء عملت لنا زوارق ورقية كنا نتركها على سطح بحيرة الخراء.

قالوا إني دفعت أخي في البالوعة ثم هربت الى سطح البيت مختبأ في قفص الدجاج. ولما كبرت سألتهم : ربما سقط ، وأنا هربت بسبب الخوف ؟ قالوا : أنت أعترفت بنفسك. ربما حققوا معي مثل شرطة الدكتاتور. أنا لا أذكر أي شيء. لكنهم يقولون ويحكون، وكأنهم يتمتعون بمشاهدة أحد الإفلام. كان الجيران كلهم قد شاركوا في كرنفال جحيم البالوعة. لم يعثروا على تلك السيارة التي كانت تأتي مرة في الشهر وتفرغ بالوعات الحي. استعانوا بكل شئ. بالقدور والآواني الأخرى وبدلو كبير لتفريغ الخراء من البالوعة. كانت عملية شاقة ومقززة وكأنه مشهد تعذيب بالحركة البطيئة. كان القيظ و الروائح الكريهة يضاعف من التعب وهول الصدمة. وقبل أن تغرب الشمس، أخرجوه ، طفلا كفنه الخراء.

تأخر أبي في العودة من الجبهة. كتب عمي رسالة له ثم تكفل بمراسيم دفن أخي. دفناه في مقبرة الأطفال على التل. ربما هي أجمل مقبرة في العالم. في الربيع كانت تنبت هناك أزهار برية من كل لون وشكل. وتبدو المقبرة من بعيد وكأنها شجرة عملاقة ملونة. مقبرة يفوح عطرها بقوة و ينتشر الى عشرة كيلو أمتار. بعدها بأسبوع دفعت جارتنا أم علاء الباب وشاهدت أمي. كانت في ذهول من شدة الحزن.

وضعت الخراء في طاسة صغيرة. و أخذت ببطء شديد تخلط الخراء بملعقة من البلاستيك، بالطعام، و تملأ به فمي ودموعها تسيل...

أرسلني أبي الى عمي كي أعيش معه. وهكذا أصبحت لاجئا من صنف آخر. كنت أحل ضيفا على بيتنا كل يوم جمعة. تصحبني زوجة عمي كي ترقب أمي. صرت مثل الكرة التي تتقاذفها الأقدام. هكذا مرت ست سنوات وانا أسعى الى أن أفقه مايحدث حولي. كان علي أن أتعلم ماتعنيه أحاسيسهم وكلماتهم وسلسلة جمر في رقبتي. كنت أحبو فوق بساط من السكاكين. وكانت البالوعة فزاعة طفولتي. سمعت في أكثر من مناسبة بأن الحياة تتقدم، تسير، تبحر، وربما تزحف. حياتنا كانت تتفجر مثل المفرقعات النارية. وتتناثر في سماء الله. كاتب الاقدار ومدفع القصف العظيم. قضيت سنوات طفولتي ومراهقتي وانا اراقب الجميع مثل قناص يختبأ في العتمة. أراقب وأرمي. كنت أطلق على كوابيس حياتي كوابيسا أخرى - كوابيسي المتخيلة. إبتكرت صورا ذهنية لتعذيب أمي والآخرين. ورسمت في دفتر مدرسي شاحنات عملاقة تسحق رووس الاطفال. مازلت أذكر صورة الرئيس المطبوعة على غلاف الدفتر. إرتدى فيها بدلة عسكرية وهو يبتسم. وقد كتب أسفل الصورة : القلم والبندقية فوهة واحدة .

كانت هناك عربة نفط يجرها حمار. تأتي الى أزقة الحي شتاءا. كان الأطفال يتبعون صاحب العربة، منتظرين أن ينتصب زب الحمار،المخيف. كنت أغمض عيني. واتخيل زب الحمار، الغليظ والأسود، يدخل من أذن أمي اليمنى ليخرج من اليسرى. وهي تصرخ وتستغيث من شدة الوجع.

قبل أن تنتهي الحرب بعام ، فقد أبي ساقه اليسرى وخصيتيه. وهذه الحال أرغمت أمي على ان أعود الى البيت. أبي قرر أن يعود الى مهنة أبيه وأجداده : صناعة الطرشي. يقولون أن جدي كان أشهر بائع طرشي في مدينة النجف. الملك نفسه ، زاره ثلاث مرات. عدت الى البيت وصرت ساق أبي وذراعيه وخادمه المطيع. وكنت سعيدا، فأبي معجزة من الطيبة. رغم كل ما عاناه في حياته. ظل مخلصا لروحه. التي لم يشوهها الألم. ركّب ساقا صناعية وضاعف من طاقة الحب. كان يدلل أمي ويغمرها بالهدايا- قلادات ذهب وخواتم وألبسة داخلية مطرزة بالورود.

قام أبي بتبليط باحة البيت وعمل غطاء كونكريتي لفوهة البالوعة. لم تبق سوى فسحة لشجرة التين التي أماتتها المياه المخمرة للطرشي. تحتها بكت أمي آخر مرة حين بلغت السادسة عشرة من العمر. قامت الحكومة في بغداد بشق طريق للخط السريع وأزالت المقبرة القديمة. كان قبر والدها هناك. و إستمر زمنا طويلا حزننا على ضياع عظام الجد.

كانت الباحة مليئة ببرامل التخمير البلاستيكية. وأكوام من شوالات الخيار والباذنجان والفلفل الأخضر والأحمر والزيتون واللهانة والقرنابيط. وأكياس الملح والسكر والبهارات وقناني الخل وعلب الدبس. كانت هناك قدور طبخ كبيرة. الماء يغلي فيها طوال الوقت. نضيف إليها البهارات ثم خيار الماء والباذنجان والقرنابيط واللهانة والجزر. لم يكن أبي ماهرا كأبيه وجدّه. وراح يجرب طرقا جديدة. كان قد قضى شطرا كبيرا من حياته في الدبابة. نسي الكثير من الوصفات السرية لعمل الطرشي. أضاعت الدبابة عليه زبّه ومهنة أسلافه.

أجلس قبالة أمي ساعات ونحن نقطع الباذنجان أو نحشو الخيار بالثوم أو الكرفس. كان لسانها، مسموما مثل أفعى. ولم يعد الصيف يؤلمها. تحولت الى بقرة سمينة حرقتها الشمس. سليطة اللسان. وتدخن

بأفراط. نبتت في قلبها أعشاب مسمومة . كان الناس يرثون لحالها بكلمات مسمومة أيضا : المسكينة .. لا زب ولا أولاد ... بس غراب البين . الغراب هو أنا. و معه كل رموز الشؤم. كان أبي مشغولا طوال الوقت بأمور الحسابات والتعامل مع الدكاكين في السوق ونقل البراميل بسيارة الشحن القديمة. ينهار أبي من التعب بعد مغيب الشمس. يتعشى ويصلي ويروي لنا مشاكل الطرشي. ينزع ساقه الاصطناعية. ويدخل السرير ليدغدغ إمرأته الشمطاء بأصابعه.

حين أندلعت حرب الخليج الثانية كان علي الألتحاق بخدمة الجيش. جلس أبي وعمي يتشاورن في أمور خدمتي العسكرية. لم يشاهد عمي أهوال جبهات الحرب الاولى. كان يعمل في مديرية الأمن في مركز المدينة. أتخذ أبي قراره : لن أعطيه للموت. كيف لهم ان يقتلوا أبني الوحيد . تشاجر عمي معه. شرح له موقفه من دائرته الأمنية. أبن اخيه هارب من خدمة العلم (تريدهم يعدمونا أحنا والنسوان ؟). أصر أبي على موقفه. هددنا عمي بأنه سيلقي القبض بنفسه علي ان لم ألتحق بالجيش. لكن أبي طرده من البيت. وقال له (اسمع .. صحيح انا رجل مسالم .. لكن هذا ابني... قطعة من جسدي .. ان فعلت ذلك ... ساذبحك من الوريد الى الوريد...). كان عمي سكرانا ليلتها. وهائج مثل ثور، غادر وهو يشتم صارخا. قام أبي وصلى ركعتين. وسرعان ما إستعاد هدوءه : اعوذ بالله من الشيطان الرجيم ... إنه أخي ... مجرد كلام سكر .. أنا أعرفه ... قلبه أبيض ...

بقيت سجين البيت ثلاثة أشهر. كانت الشرطة العسكرية وكل أجهزة الامن تملأ الشوارع. قرر أبي أن لاأعمل في النهار كي لاينتبه إليّ الجيران. أخرج ليلا الى الباحة مثل اللص وفي يدي فانوس. أجلس قرب شوالات الباذنجان والخيار والفلفل. وأنهمك في العمل والتفكير في حياتي. كنت أخلط العرق بالماء في علبة حليب فارغة لئلا أزعج أبي. اقضي الليل وانا أسكر والمزة من كل أصناف طرشي سائق الدبابة . يسري الكحول في دمي فأحبو مثل طفل الى البالوعة. الصق أذني بالغطاء الكنوكريتي وأصغي. أسمعه يضحك. أغمض عيني. فأتخيل لمس كتفه العاري. جلده ساخن من كثرة اللعب والتعب. لم اعد أذكر وجهه. صورته الفوتوغرافية الوحيدة مع أمي. هي تمنع الكل من الأقتراب منها. تخبئها في دولاب الملابس. تضع الصورة في علبة خشبية صغيرة مرسوم عليها طاووس.

عند ساعات الفجر الأولى ينهض أبي. غالبا ما كان يجدني نائما في مكاني. يضع يده على جبيني. فأفيق من لمسة يده. (أدخل ابني ... صليلك ركعتين ... وأدعو ربك يوفقك) لم يكن غافلا عن شربي العرق. لكن الدين لم يكن بالنسبة له أحاديث نبي ولا شريعة ولا محرمات. الدين هو حب الخير، هذا كلامه لكل من يناقشه في مسألة الحلال والحرام وأمور الشريعة. لن أنسى أبدا ذلك اليوم الذي أنهار فيه باكيا في ساحة اللعب بالكرة. أخاف الأطفال. وأنا خجلت و إرتبكت بسبب بكائه. كان رفاق حزب البعث قد أعدموا ثلاثة شبان كرد قريبا من ساحة الكرة. ربطوهم الى أعمدة خشبية ورموهم بالرصاص امام مرأى جميع سكان الحي. قبلها خطبوا من مكبر الصوت : (هؤلاء الخونة المخربين لايستحقون ان يأكلوا ويشربوا ويتنفسوا من ماء وهواء وخيرات هذا البلد) ، وكعادة رفاق الحزب أخذوا الجثث وتركوا أعمدة الخشب في مكانها كي يتذكر الجميع ما حدث. جاء أبي الى الساحة لاصطحابي الى السينما كان مولعا بالأفلام الهندية. وحين تأمل الهدف الذي ينقصه العارضة الخشبية أدرك اننا أخذنا الأعمدة الثلاثة وعملنا منها عوارضا للأهداف. كانت آثار الدم الذي يبس على الخشب. أنهار ابي حين سمع أحد الاولاد يقول : عمو .. ناقص عارضة وحدة .. يمكن يعدمون بعد واحد .. وناخذ الخشبة مالته ..

في مساء صيفي قُصِفنا من جديد. طرق عمي الباب بعصبية. كانت أمي تعد النقود وتضعها في زجاجة معجون طماطم فارغة. انا وأبي كنا نلعب الشطرنج. كان يمكنه أن يغلبني بسهولة. لكنه كان يتسلى بفرحتي وأنا أقتل جنوده أولا. قدمهم وبقية البيادق لي من دون غطاء وكقرابين. أبقى على ملكه ووزيره فقط. ثم أخذ يفتك ببيادقي بوزيره الأسود ويحكم بالموت على ملكي.

خرج أبي للباحة لأستقبال عمي. لفت أمي فوطتها ولحقت به. وقفوا جميعهم قرب البالوعة وراحوا يتناقشون بعصبية لكن بصوت خفيض. راقبتهم من خلف زجاج الشباك. كنت دائخا من سكرة الأمس. أنتظرت قدوم الليل لأسكر من جديد. هرولت أمي لجلب شئ من الأغراض أسفل السلم. تعاون أبي وعمي على أفراغ برميل مليء بطرشي القرنابيط. عادت أمي بمطرقة ومسمار. طرح أبي البرميل أرضا، وأخذ، يحدث فيه ثقوبا عشوائية بالمسمار. لم يكن يحمل ساقه الاصطناعية. كان يقفز على ساق واحدة وهو يدور حول البرميل كأنه يلعب أو يرقص. أوقف عمي السيارة أمام باب البيت ونقلوا إليها براميل الطرشي. دخل أبي الغرفة وهو يتصبب عرقا :

- أسمع ابني ... ماكو وقت ... عمك عنده معلومات ان الأمن والحزب راح يفتشون من الفجر كل البيوت ... عمك عنده اصدقاء اوفياء بقرية العوران... ابقالك هناك كم يوم ... منا لمن الامور تهدأ ...

دخلت البرميل الفارغ. أحكمت أمي غلق الغطاء. وحملني أبي وعمي الى السيارة.

كان أبي محقا. أنه أخوه ويعرف قلبه. قاد عمي السيارة في الشوراع مثل المجنون لينقذ حياتي. تمكن من الوصول الى أطراف المدينة بسلام. لكن جميع المعابر المؤدية الى الأقضية والقرى، كانت تحرسها نقاط تفتيش عسكرية. الحل الوحيد أمامه هو التوجه الى الطرق المهجورة. أختار طريق مزارع الحنطة شرق المدينة. ربما ذعر عمي أنساه الطرق المناسبة. حتى الطفل في المدينة كان يعرف سلسة التلال الصخرية الوعرة بعد مزارع الحنطة. ربما كانت صور تعذيب الناس في دائرته الأمنية تشتت ذهنه. لعله تخيل جماعته يذيبونه في أحواض حامض الكبريت (ضابط أمن يهرب أبن أخيه في برميل طرشي) كان يقود السيارة في مزارع الحنطة مسيطرا بالكاد على المقود. المطبات كسرت ضلوعي و الغبار الذي تثيره السيارة يدخل من الثقوب في البرميل بدل الهواء. كانت رائحة البرميل مثل جيفة القطط الميتة في مزبلة الحي. هل كان عمي يقلع الأظافر ويفقأ العيون ويحرق الجلود بمكواة في أقبيه دائرة الامن؟ ! ربما قادته أرواح المعذبين الى الهاوية، ربما هي روحي الشريرة. ولعلها الروح التي كتبت كل شئ ، فان ، غامض، في هذه الدنيا الزائلة.

سبعة براميل تقبع في ظلام أسفل المنحدر مثل حيوانات نائمة. أنقلبت السيارة بعد أن حاول عمي اجتياز التل الصخري الثاني. تدحرجت البراميل مع السيارة الى الهاوية. قضيت الليل غائبا عن الوعي في جوف البرميل. في ساعات الصباح الاولى. كانت أشعة الشمس تتسرب من ثقوب البرميل، وكأنها خيوط أنفاس ممدودة الى غريق. كان الدم يملأ فمي، ويداي ترتعشان. كنت فريسة الإثنين: الألم و الرعب. رحت أرقب أشعة الشمس وهو تتشابك بغرابة في البرميل. أردت التخلص من الفوضى التي لحقت بوعيي. شعرت كأني دخنت طنا من الماريهوانا : سمكة تفيق في علبة سردين. دودة ميتة في جوف بئر مهجور. جنين متعفن سُحقت عظامه في رحم على شكل برميل. الى أن استقرت في ذهني صورة أخي النازل الى قاع البالوعة وأنا أغوص وراءه.

كان ثغاء الماعز يصلني ضعيفا أول الأمر، وكأنها فرقة أنشاد تتدرب على الغناء. تثغو عنزة ثم أخرى ثم كل العنزات سوية وكأنها وصلت الى الميلودي المناسب. وقبل أن يصيح الراعي على القطيع، وتنطح عنزة البرميل، تحرك شعاع وسقط في بؤبؤ عيني. تبولت على نفسي في جوف البرميل، مشدوها من قسوة العالم الذي سأعود اليه .

هلسنكي 2010

مجنون ساحة الحرية



يمثل حسن بلاسم – قاصا وشاعرا، وكاتب سيناريو– تيارا متميزا في الأدب العربي. ذلك أن (واقعية) بلاسم مغايرة للسائد تماما. قد تكون شبيهة بمشرط جراح يقوم بحز الجلد، والأنسجة الحية، وقطع أوعية الدم. انها واقعية الاجتياز الفظ للحياة، وحجب كل الأضواء الزائفة المسلطة على الانسان ودراماه الرئيسية: الوجود في الزمكان.

